فوتوغرام-حكائي

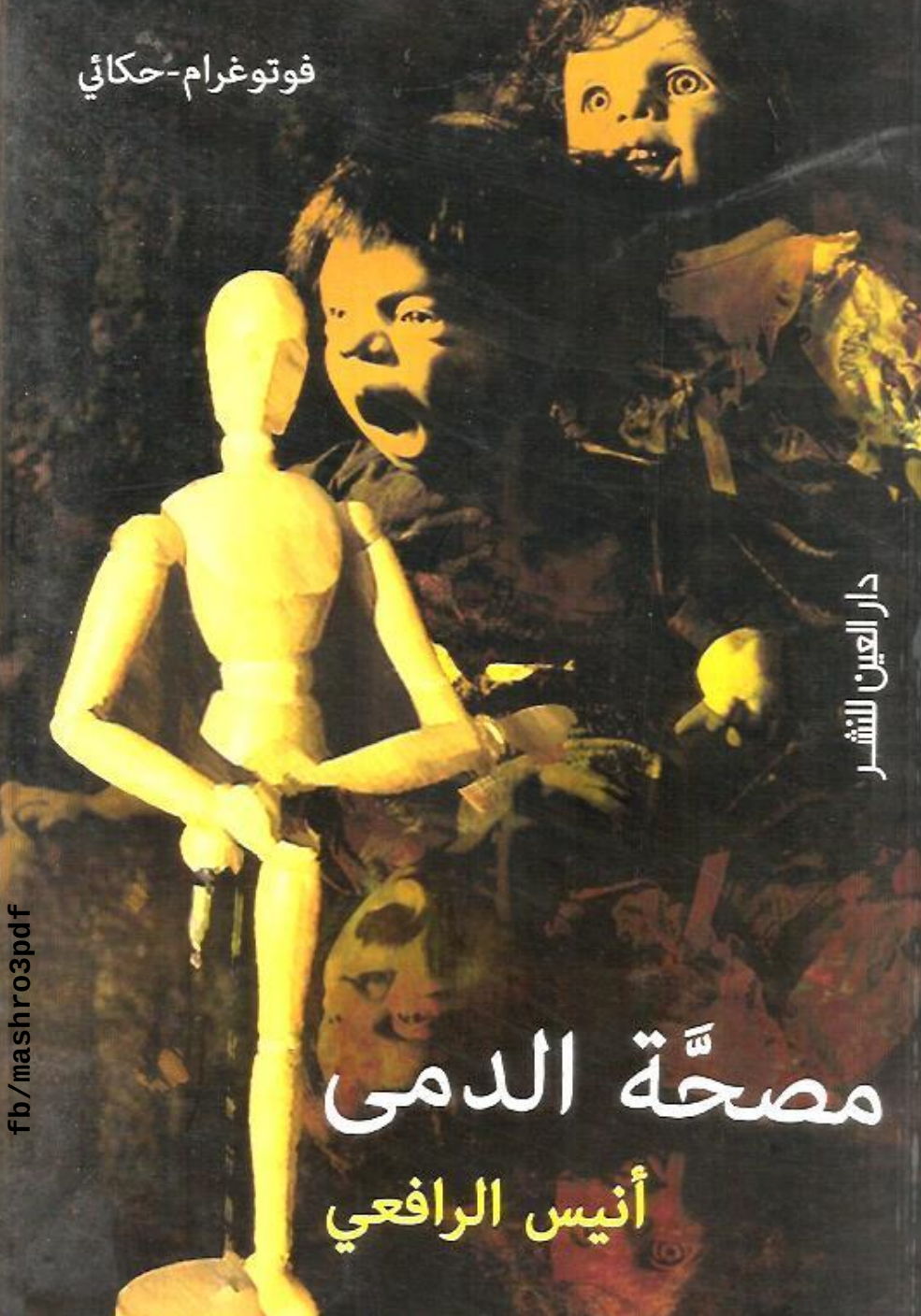

دار العين للنشر

مصحَّة الدمى

أنيس الرافعي

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

مصحّة الدمى

(فوتوغرام – حكائي)

مصحّة الدمى

(فوتوغرام - حكائي)

أنيس الرافعي

الطبعة الأولى / ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: صابرين مهران

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٤/٢٢٠٦٥

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 305 - 2

fb/mashro3pdf

مصحّة الدمى

(فوتوغرام – حكائي)

أنيس الرافعي

دار العين للنشر

fb/mashro3pdf

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الرفعي، أنيس

مصحّة الدمى: فوتوغرام - حكائي/ أنيس الرافعي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٥

ص؛ سم.

تدمك: ٢ ٣٠٥ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٢٠٦٥ / ٢٠١٤

fb/mashro3pdf

قسم الأشعة (X-Ray)

قسم الإرشادات 7
فوتومونتاج - سردي 11
- النسيجة 15
- مدوّنة الدمى 25
حكايات الفوتوغرام 37
- جناح الغصّص 41
- جناح الأورام 53
- جناح الهلاوس 69
- جناح العاهات 85
- جناح الشظايا 101
- جناح الفصام 115
- جناح العدم 127
سجّل الصور الفوتوغرافية 141

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

قسم الإرشادات

(Patients Services)

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(حين ينتابنا الخوف، نطلق الرصاص، لكن حين ينتابنا الحنين، نطلق الصور)

سوزان سونتاغ، *حول الفوتوغرافيا*، ص23.

(كانت الدمية ترتدي فستان عروس. عيناها الكبيرتان مفتوحتان على وسعهما، ومصوّبتان في اتجاه السقف. لحظتها، لم يكن يعلم إن كانت ميتة أو أنها تحلم فحسب. فذراعاها الممدودتان إلى الأمام كان تصرفا يحتمل أن يعبر عن يأس شامل أو عن فرح غامر)

فلسبيرطو هرناندیث، *الأعمال الكاملة*، ص304.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(فوتومونتاج - سردي)

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(تجهيز وفوتوغرافيا: هانز بلمير[ألمانيا])

[الصورة 2]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

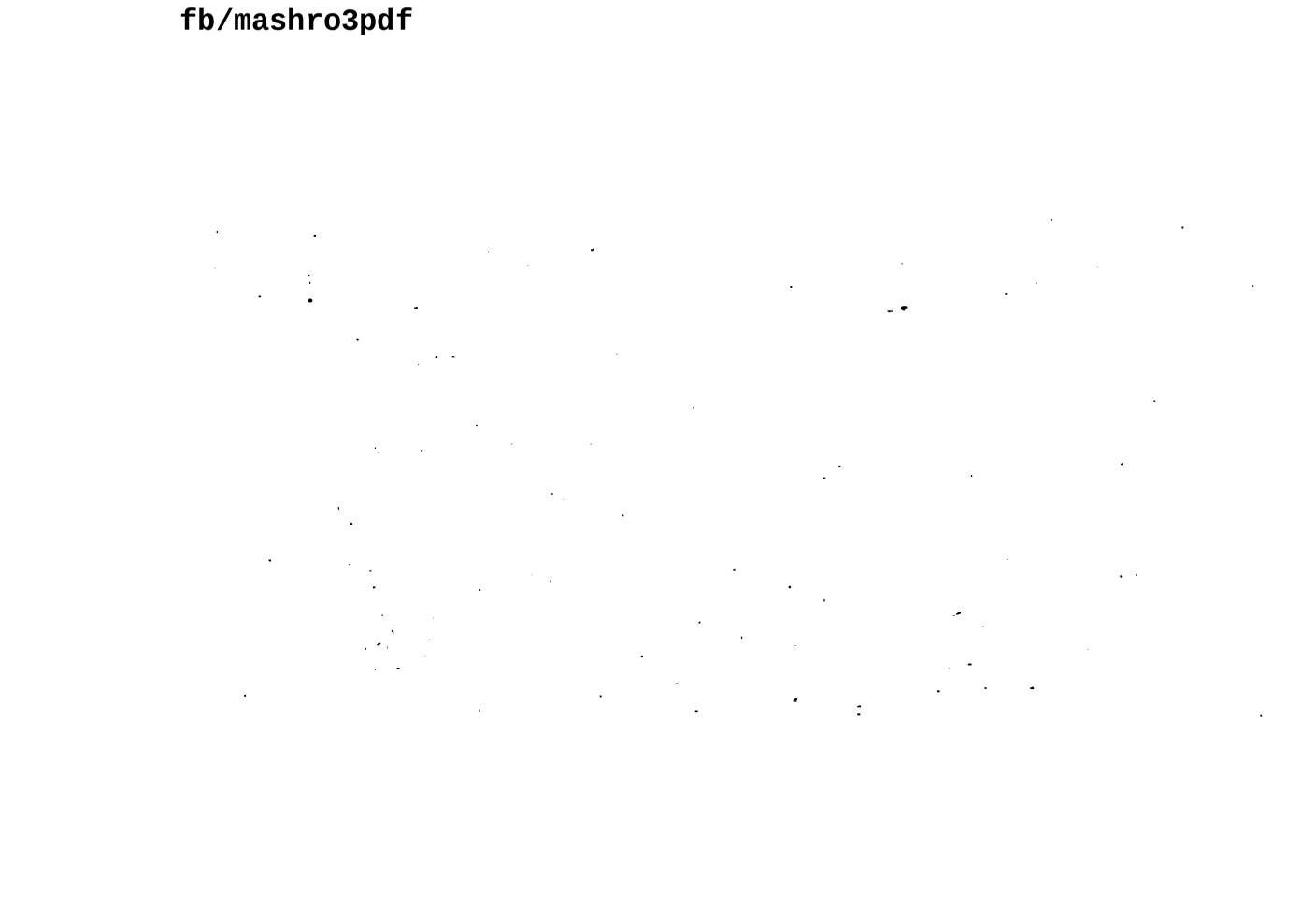

النسيجة

أحيانا تسبق الصور الحكايات، وفي أحايين أخرى تسبق الحكايات الصور، ربما بفعل زعم تهويلي ونزّاع للخشية في تقدير النظائر، مداره أن ارتقاء مدارج المعنى يتطلّب على الدوام تعويضا مجزيّا ومكلّفا عن ألم الفرقة، وكذا لاعتقاد خاطئ ومغرور كامن في لاوعي الطبائع، يجنح إلى تتويج كل واحدة منهما بحظوة الأصل ونهاية المآب، كي تكون هي المبتدأ والمنتهى دون غيرها.

هي المرآة دون طيفها، أو الصوت دون صداه، أو القمر في اكتمال استدارته دون السطح الشفاف والمنير لحوض سباحة.

fb/mashro3pdf

هي المرجع الفرد لذاتها، وما من ذات أخرى يمكن أن تترادف أو تنطوي بداخلها.

غير أن كلتيهما، تعلم علم اليقين أنه ليس بمقدورها أن تصل بمفردها كي تتصدر مشهد القراءة، وأن المسافة في عرف الخيال، لا تستقيم سوى بالإيهام السّاحر والمدوّخ، الذي خلّفه لنا ذلك الإله المسمّى بـ "جانوس" على وجهي عملة نقدية مزدوجة الرنين، أو بالغرام التعيس والمدهش للعاشقين "سينوس" و"كوسينوس"، اللذين حكم على كل منهما بقدر انعكاس صورته على صورة الآخر، وبالتبادل الثنائي للعبة التقمص اللانهائية.

إذ لا محيد في عرف الصنائع من تراصهما وتضافرهما وتجاورهما وتقابلهما وتوازيهما، في ما يشبه إعادة وصل حاستين، لا تنجلي وظيفتهما إلا بتوحدهما وتخاصرهما داخل جسد واحد.

ومن ثمة، لا فكاك من رتق ما تمّ فتقه، وإبرام ما تمّ نقضه، وترسيم ما تمّ امّحاؤه، كيما يتطابق الظاهر مع باطنه، وكيما يتناسب الداخل مع خارجه.

ولا مناص من استعادة هذا البياض الذي أغفله النسّاج عمدا، والتصدي لهذا الإمعان الفج في تمجيد الخلل، كيما يتحقّق تكافؤ الأنحاء، وكيما يتجسّد توازن الغايات.

fb/mashro3pdf

لذا، خذ حكيا. كثيرا من الحكي.

لذا، خذ زمنا. زمنا ملتبسا بين الماضي والحاضر والمجهول.

لذا، خذ مكانا. مكانا واحدا لا يتغير إلا بمقدار تغيّر منظورات الرؤية وزواياها.

لذا، خذ ضوءا وظلا. قليلا من الضوء وقليلا من الظلّ. تصوّر فيهما عمقا، إيحاء بالعمق. ابتكر فيهما فراغا، فراغا مقصودا لذاته بوصفه كيانا حيّا مقابلا للملء. تخيّل فيهما صمتا كبيرا. صمتا مؤثّرا. صمتا متعرّجا. صمتا يعلّمك من جديد كيف تكتب، لأن كل ما كتبته سابقا يمثّل الجزء الميت منك.

أصخ السمع إلى هذا الصمت.لا تدوّنه بالكلمات، بل كن زاهدا فيه وبلا حكم تجاهه. كن عدسيّة وشبكيّة عين. كن حدقة نزيهة لا يد لها. تجنّب ما استطعت ذلك الاستبداد المتكبّر لليد. تلك التي تميل لإلقاء عظة أو تتظاهر بكونها مقبلة على هندسة معمار فنّ عظيم.

أنظر إلى هذا الصمت، واجعل منه لغزك الغاص بالأسرار.

هذا هو المقصود منذ بداية الأمر: أن تصير أسرارك نموذجا يقف أمام آلة ذاتِ مصوِّب. نموذجا في وضعيات معينة، بأعداد غير محدودة ولانهائية، مثلما هي وضعيات جولات الشطرنج .

هذا هو المقصود عند نهاية الأمر: أن تتساءل مع الحكي، مع

fb/mashro3pdf

الزمن، مع المكان، مع المنظورات، مع الزوايا، مع الضوء، مع العمق، مع الفراغ، مع الملء، مع الصمت، مع الظلّ، مع ظلّ اليد، مع الوضعيات، مع الأبيض، مع الأسود، ومع ما بينهما من تدّرجات لامرئيّة.

أن تسأل كيف تسربت الحياة الداخليّة لتلك الدمية عبر الجدار السميك الذي يفصل بين عالمك وعالم أشباحك، وكيف أصبح الجدار واهيا، وكيف صرت في الجانب الآخر المرعب بمجرد ما استندت عليه، وكيف تمكّن الجانب الآخر بكل ظلمته من الاندساس خلسة في داخلك؟.

أن تسأل كيف تسلّلت تلك الدمية وأندادها إلى وجه المعطف وتبطينه، وكيف تحوّلت إلى "مرض متنقّل أدبيّا"؟.

أن تسأل كيف داست مشتقاتها بأقدامها القاسية على كل هذا وذاك، على خرابك، على أعطابك، على أعصابك، على هواجسك، على رغباتك، على أحلامك، ثم توقّفت على غفلة منك دون أن تقرأ حسابها وسط عالم حياتك الساكن. الساكن تماما، مثل من أغلق نفسه وصار جزيرة(*) ستؤمها الدمى عما قريب ("طوم هانكس" سبقك إلى هنالك حتّى يكون على غرارك "وحيدا في العالم")؟.

ترى، هل توقفت فعلا، أم شبّه لك فحسب؟.

fb/mashro3pdf

ترى، هل صرتَ جزيرة فعلا، أم شبّه لك فحسب؟.

ترى، أهي دمية فعلا، أم أنها مجرد ظلّ بديل لشخص آخر قد تكونه أنت، ينبثق بغتة من فرط اتساع العزلة في بريّة النفس؟ أو بالأحرى هي بئر في قعرها يستقر نفقك الجوفيّ البعيد، الذي تخشى أن تخرج منه خلسة دمية، هي وجيز سوانحك ومختصر ظنّونك غير المدركة؟.

من قال إن الدمية فارغة وليس بداخلها أحد؟.

هل هي جسم بلا روح كما يشاع عنها، أم شكل مغاير وطاعن في الرمزيّة للروح المتلبّسة الكسيرة، دمية الدواخل الإنسانيّة المتحركة التي لا نجتهد في رسمها كي لا تكون صورة دقيقة عن دمية الخوارج الصمّاء التي يمثّلها جسدنا المعطوب؟ جسدنا المصاب بحرج الرغبة، الواقف على حافة العاطفة، والتوّاق للارتماء في هاوية الجسد المستحيل والمشتهى، المتغطرس بجماله حدّ الرهاب، والمتحدّي ببهائه حدّ اللّعنة.

ألم يكن جسد الدمية على الدوام مثيرا لشغب الأحلام المحظورة المشفّرة ومهيّجا لغبار الاستيهامات الأشدّ إثارة. تلك الهاجعة ما بين ظلام الغريزة ودكنة ما دون – الوعي؟.

ثم، من منكم يمتلك قدرة التعرّف على لحظة استفاقة الدمية؟

fb/mashro3pdf

وعلى سننها الذي به ستخاطبك كما تزعم ذلك بأطيب النوايا السيدة ذات القلب الرهيف "مونيكا شلوتر" (**)؟.

أيّ اسم تحمل من بين أسماء المدوّنة (***)؟ هل هي "أوتاتاني" (1) أو "باربي" وغريمتها "براتز" (2) أو "بينوكيو" (3) أو "ماتريوشكا" (4) أو "ماريونيت" (5) أو "دبوسية" (6) أو "مونيكا فرانكا" (7) (****)؟ دمية الآخرين التي نقتنيها في العلن لنخفي حقيقتها، أم دمية الذات التي نخترعها في السرّ لتكون حقيقتنا المخفية؟.

هل هي تحديدا من حجر وخزف وخشب وعظم وورق وقماش وبورسلين ومطاط وبلاستيك وشمع وتمر، أم كانت من مادة مجهولة تتحكم في مشيئتها خيوط لا تسبر غورها الأبصار؟.

كانت شيئا أسوأ اندلع لتوّه من حقيبة الحنين الدفينة، فاصطدمنا به ونحن في الطريق إلى دواخلنا المعذّبة، شيئا لا اسم له، شيئا لا يجوز وصفه، شيئا يتعذّر إدراكه، شيئا متسلّطا يحتلّ العقل ويوسوس في الصدر، شيئا كأنه كلمّ مطلسم يختلط معه الذهن أو حواز قلوب يقهر فؤاد الفتى حتّى يركب ما لا يحب، شيئا لا يخبر كنهه سوى ذلك المتواريّ الجبّار، الذي يحرّك من وراء حجاب كل هذه الدسائس وشتّى تلك الكروب، التي سوف تجعلك هلوعا وفي كبد.

fb/mashro3pdf

ترى، هل هي الانطلاقة الأولى لشرارة "الحرب" الضروس الموجهة ضدك (*****)؟.

ترى، هل هي دمية فعلا؟.

من يدري؟ وإذا ما قيّض لك أن تدرى حينما تفقد لغة البشر، وتتعلّم لغة البكماوات، عندئذ من المحتمل أن تجفّ الحكايات، وترفع الصور!.

fb/mashro3pdf

هوامش (النسيجة)

(*) جزيرة الدمى: اسمها الإسباني "لاس مونيكاس"، وهي إحدى الجزر التي تقع في المكسيك إلى الجنوب من العاصمة مكسيكو سيتي، حيث يمتد أرخبيل واسع من البحيرات. قبل عقد من الزمان أطلقت الحكومة المركزية حملة واسعة للقضاء على نبات زنبق الماء، الذي أصبح وجوده يشكل عائقا كبيرا للملاحة في أنهار وقنوات البحيرات. وإبّان تلك الحملة اكتشف العمال عن طريق الصدفة جزيرة صغيرة معزولة وسط الأرخبيل، أثارت في نفوسهم رعبا لا يوصف، قد لا يتخيّل المرء رؤيته سوى في الكوابيس أو في أفلام "داريو أرجينتو" و"برايان دي بالما"، بسبب المنظر الغريب والرهيب لمئات الدمى والعرائس المصلوبة على جذوع وأغصان الأشجار التي تغطي أراضيها.وخلال أسابيع قليلة انتشرت أخبار تلك الجزيرة في عموم المكسيك وخارج حدودها، فتسابق عندئذ الصحفيون ومراسلو المجلات والتلفزيون للوصول إليها، وفي خضم هذا الهوس راح الجميع يستقصي بفضول عن القصة التي تقف وراء دمى الجزيرة، وبسؤال السكان والمزارعين المجاورين للجزيرة بدأت تتكشف رويدا فرويدا وقائع قصة لا تصدّق (حكاية "جناح الهلاوس" تستعيد بعض تفاصيل هذه القصة بقليل من التصرف).

(**) مونيكا شلوتر: سيدة ألمانية معروفة تمتلك أستوديو ذائع الصيت بالنسبة للمهتمين، يقع في حي "زويست" القديم في مدينة "فيستفاليا". تعمل بداخله باعتباره ورشتها في حرفة نادرة لايمتهنها الكثيرون، فهي طبيبة من نوع خاص جدا، إذ تعالج الدمى بكثير من البراعة والرقة، وتقوم بإصلاح سيقانها المكسورة، وتعيد تركيب عدسات أعينها المفقودة، وغير ذلك من أطراف الأجسام الاصطناعية. تختزن السيدة "شلوتر" الوفير من الطرائف والأسرار عن الدمى التي مرّت في عيادتها، وتعدّها بمثابة أفضل صديقاتها، لكونها عاشت خلال الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين، ونجت بأعجوبة من أزمات عصيبة كادت تودي بحياتها. ومن هنا، اكتسبت عادة الحديث إلى الدمى كي تخبرها بمدى سعادتها لنجاتها بأعجوبة من الموت. أما فكرة إحداثها لهذا الأستوديو، فقد نبعت حينما جاءتها قبل سنوات طويلة امرأة مكلومة،

fb/mashro3pdf

وهي تحمل الدب الدمية الخاص بابنها الذي توفي إثر حادث مروري، وكان فراء الدب قد بلي، والقدمان والذراعان بحاجة إلى إصلاح، فضلاً على أن العين لم تكن واضحة المعالم، غير أن المرأة كانت معدمة ولم يكن بحوزتها أي مال، فقامت السيدة "شلوتر" بإصلاح الدب الدمية من دون مقابل، وكان هذا الدب هو آخر ما يذكر المرأة بابنها الفقيد. تقول السيدة "شلوتر" إنّ هذه التجربة أثرت في مشاعرها بدرجة بالغة، مشيرة إلى أنه لو كانت الدمى تتوفر على ملكة الكلام، لسردت الكثير من القصص المثيرة والمفعمة بالعواطف. يشار إلى أنه عندما افتتحت السيدة "شلوتر" متجرها بشكل رسمي قبل 25 عاماً، كان دافعها هو العاطفة، ومنذ ذلك الحين أصلحت أكثر من 10 آلاف دمية. وتحصل على قطع الغيار والإكسسوارات التي تستخدمها لعلاج الدمى من خلال زيارة أسواق التحف والأشياء القديمة ودور المزادات، ويأتي عملاؤها من أماكن بعيدة للغاية مثل باريس وهلسنكي وبومباي وكاليفورنيا.

(***) أفتلذت أغلبية المعلومات الواردة بين ثنايا المدوّنة، بكثير من التصرف والتوضيب والتخصيب، من عدة كتب ومجلات ورقية، وكذا من مجموعة من الموسوعات على شبكة الأنترنيت (باللّغتين العربية والفرنسية). وهي معلومات تمثّل - بتعبير أمبرتو إيكو - "لائحة برغماتية" مفتوحة يمكن تعدّيلها إلى ما لانهاية بواسطة "الذوق المولع بالمراكمة والمضاعفة".

(****) كل عينة مدرجة من دمى هذه المدوّنة، هي بمثابة دائرة أصلية موافقة، في الآن ذاته، وإن بطريقة غير تعاقبية، لدائرة ثانية تمثّلها صورة فوتوغرافية من صور السجّل، وكذا لدائرة ثالثة تجسّدها حكاية من حكايات الفوتوغرام. الدوائر الثلاث في حركتها الهندسية اللاخطية وغير الخاضعة للصدفة العرضية أو للإكراهات السياقية، تتبادل الأدوار، والتحبيك، والقوالب التقنية، واستعارة النموذج، وتجتهد في ضياعها داخل بعضها البعض، لكن وفق نسق مدروس وبناء مترابط وتنام درامي لا عوق فيه، جوهره أن تنفصل وتتفكك عن مركزها، ثم تعود لتجتمع مرة أخرى في دائرة واحدة بطريقة إدماجية. إذ إن كل دائرة شهقة تصّاعد، وكلما وصلت إلى ذروتها ندّت عن الدائرة الموالية شهقة إضافية، وهكذا دواليك.

(*****) الدمى ضالعة في كل الحروب، سواء المعلنة أم السريّة، ففي الحرب العالمية الثانية تمّ إسقاطها بالمظلات من الطائرات بغرض إيهام العدو. وكذلك استخدمت "دبابات الدمى" بغاية الخداع أو التدريبات اللوجستيكية من لدن كل من قوات الحلفاء وقوات المحور. وزعيم النازية "أدولف هتلر" وزّع دمى فتيات متطورة

fb/mashro3pdf

الصنع، شقراوات بعيون زرق وصغيرة الحجم يمكن حملها في حقائب الظهر، على قواته المسلّحة بعدما أصيب الكثير من الجنود الألمان بأمراض جنسيّة. وعلى الأرجح لقيّ تلك الهزيمة النكراء، لأن الجنود انشغلوا بها ونسوا واجباتهم على الخطوط الأمامية! أمّا وكالة الاستخبارات الأمريكية فقد قامت بشن حرب على الإرهاب عن طريق الدمى. فعكفت على إعداد دمية مصمّمة خصيصا على شكل قائد تنظيم القاعدة "بن لادن"، يظهر فيها بنظرة شريرة ووجه بشع. وكان الهدف من وراء هذا المشروع هو إخافة الأطفال وآبائهم، مما يؤدي إلى طبع صورة مرعبة في أذهان المواطنين الأمريكيين. وقد أطلقت "السي آي إيه" على دمية بن لادن اسم "عيون الشيطان"!.

fb/mashro3pdf

مدوّنة الدمى

(1) **أوتاتاني:** أو "الإغفاءة القصيرة"، يعود أصلها إلى عصر "جومون" حوالي 3000 سنة قبل الميلاد. تعتبر واحدة من أعرق الدمى الأسطورية في الثقافة اليابانية، تمثّل شابة حسناء تحدّق منحنية على رضيعها الذي يغفو بين ذراعيها الحانيين. يتم تقديمها في تصمّيمات إبداعية على شكل عمارة مزركشة مشيّدة من عدة طوابق، وعلى هيئة حيوان، أو مخلوق خيالي. تعتبر ديكورا أساسيا في المنازل قياسا إلى قيمتها النوستالجية، كما أن لها دورا سحريا في طرد الأرواح الشريرة. تحدّرت من سلالتها دمى أخرى تقليدية بارزة مثل: **"كاراكوري"، و"غوشو"، و"هينا"، و"موشا"، و"إيشيماتسو"،**

fb/mashro3pdf

و"كيميكومي"، و"كوكيتشكي"، و"داروما". استخدمت أوتاتاني في مسرح "الكابوكي" بمثابة قناع لدمية أنثوية مسوّدة الأسنان، هو عبارة عن رأس وأيد، ويغطّي فستان بذيل طويل، كما هو مفترض، الجذع والساقين، فيدخل المنشّط إحدى يديه تحت القناع كي يوهم المشاهد بالحركة. وخلال ثمانينيات القرن الماضي، ظهرت أوتاتاني كنموذج إبداعي مع اندلاع موجة "الأنمي" (الرسوم المتحرّكة) و"المانغا" (القصص المصوّرة)، خاصة على يد المؤلف "تيزوكا أوسامو".

(2) **باربي وغريمتها براتز:** **"باربي"** عروسة أزياء مراهقة وطاغية الأنوثة، من إنتاج شركة "ماتيل" الأمريكية للألعاب. طرحت في الأسواق لأول مرة في مارس 1959، بعد أن صمّم شكلها الجديد المهندس "جاك ريان"، انطلاقا من الدمية الألمانية **"بيلد ليلي"** التي فوتت حقوقها للشركة الأمريكية وتوقف إنتاجها تماما. تعتبر الدمية الأشهر في التاريخ الحديث لأنّ إستراتيجية تسويقها الجهنميّة جعلتها تصل إلى 150 دولة، وقد بيع منها أكثر من ملياري نسخة. خلّدها فنان "البوب آرت" الأمريكي "أندي وارهول" (1928 - 1987) سنة 1985 في لوحة بتقنية الطباعة بالشاشة الحريرية. أما **"براتز"** فهي المنافسة التجارية الأولى للدمية **"باربي"** وغريمتها في العديد من القضايا القانونيّة التي تهمّ الموضة وألعاب الفيديو

fb/mashro3pdf

وأفلام الرسوم المتحرّكة وفنون الكوميكس (القصص المصوّرة). صغيرة الحجم لا تتجاوز 25 سنتمتر. ظهرت للوجود سنة 2001، وبيع منها حوالي مليار نسخة حول العالم في 100 دولة. تتشكّل من أربعة نماذج لكل نموذج خصوصيته: كلوي، ساشا، ياسمين، وجاد. **"كلوي"**، بيضاء ذات عينين زرقاوين. والدها هو "أليكس" ووالدتها هي "لوبيز". من أصل مختلط أرجنتيني أمريكي. تمثّل الصدق، وإن كانت قاسية أحيانا. **"ساشا"**، شعرها لامع وتمتلك عينين لوزيتين. والدها هو "بوبي" ووالدتها هي "باكستر". من أصول أفروأمريكية. تحب موسيقى "الهيب هوب"، وتمثّل النرجسية. **"ياسمين"**، سمراء بلواحظ بنيّة. والدها هو "ويلي" ووالدتها هي "دارلا". من أصول إسبانية، تتميز بهدوئها وقدرتها على الصبر. **"جاد"**، آسيوية، شعرها أسود وعيناها خضراوان. والدها هو "بيل" ووالدتها هي "جين". من أصول يابانية، وهي صامتة وتحب تربية القطط. تمتلك قطة صغيرة اسمها "ميكا".

(3) **بينوكيو:** دمية تمثّل طفلا ذكرا مصنوعا من الخشب. في الأصل هي شخصية خيالية من إبداع الروائي الإيطالي "كارلو كولودي"، الذي وضع سنة 1880 قصة ممتعة تتمحور أحداثها حول قيام نجار قروي توسكاني يسمّى "غبيتو" بصناعة طفل خشبي

fb/mashro3pdf

يتحرّك بواسطة خيطين، وأطلق عليه اسم بينوكيو، وتمنى في قرارة نفسه أن يصبح فتى حقيقا، يعوّضه عن حرمانه من الأولاد. وذات يوم، بعد أن فرغ النجار من صناعته، تجلّت إحدى الحوريات للطفل الخشبي، ونفخت في روحه ليغدو مفعما بالحياة مثل الأولاد الآدميين، ناصحة إياه بأن يتمتع بفضيلتي الصدق والشجاعة، لكنه سارع إلى الهروب من منزل النجار الطيب. لم يكن بينوكيو يعلم واقع الحياة خارج منزل النجار، وعندما شعر بالبرد الشديد، اقترب من النار ليحصل منها على الدفء، ولكن النار أحرقت قدمه، ومن المدهش أنه كان عندما يكذب، يطول أنفه بطريقة عجائبية، وسرعان ما ينكشف أمره بين أترابه. ترجمت القصة لأكثر لغات العالم، وتحوّلت لعشرات الأفلام، منها ما أنتجته ديزني بالرسوم المتحركة سنة 1940، وهوليوود مع المخرج البريطاني "مايكل أندرسن" سنة 2000، والتلفزيون الإيطالي في خمس حلقات بعنوان "مغامرات بينيكيو" كل حلقة بمدة ساعة وذلك في العام 1972 برؤية المخرج "لويجي كومنشيني". كما قام "روبرتو بنيني" سنة 2001 بتحقيق فيلم شهير عن بينوكيو.

(4) **ماتريوشكا:** تعرف أيضا بـ **"بابوشكا"**. أصلها روسي واسمها مشتق عن اسم امرأة تدعى "ماتريونا". عبارة عن دمية مزخرفة تتضمّن داخلها عدة دمى أخرى بأحجام متناقصة، ترجع

fb/mashro3pdf

الأساطير الشعبية ظهورها إلى تسعينات القرن التاسع عشر حين اخترع الخرّاط الروسي "فلاديمير زفيوزدوتشكين" شكلها المبني على مبدأي التداخل والانقسام. أما أول زخرفة لها فقام بها الفنان المحترف "سيرغي ماليوتين". هناك فرضية أخرى تقول إن الماتريوشكا الروسية صنعت على غرار دمى خشبية يابانية، غير أن مذكرات "فلاديمير زفيوزدوتشكين" تخبرنا على نحو قاطع بكونه لم يسبق له رؤية لعب يابانية مزخرفة تنهض على مبدأي التداخل والانقسام وفق التصور الروسي. ثمة معلومات تاريخية معمّقة تفيد بأن فنانين روس كانوا يصنعون بيضات عيد الفصح الجوفاء القابلة للانفصال ومن هذه المرجعية تمّ استيحاء فكرة صناعتها، كما يعتقد بعض المؤرخين الثيولوجيين بأن دمية الماتريوشكا هي صنم وثني ذهبي على شكل امرأة كان الصقالبة القدامى يعبدونه، وكان معمولا من الخشب وفي داخله صنم صغير يمثل حفيد المرأة المقدسة. عرضت الماتريوشكا لأول مرة عام 1900 في معرض باريس العالمي، حيث أحرزت الميدالية البرونزية، مما شجّع على ذيوع شهرتها الكونية. يتراوح عدد الدّمى في داخل الماتريوشكا الروسية من 3 دمى إلى 5 دمى، وجميعها على شكل بيضة ذات قعر مسطّح يتألف من القسمين العلوي والسفلي. شهد معرض طوكيو سنة 1970 عرض أكبر ماتريوشكا تتألف من 72 دّمية. يتم إعداد الخشب للماتريوشكا في فصل الربيع ليجفف طيلة سنة أو

fb/mashro3pdf

سنتين، ويتعرض كل قالب للماتريوشكا لأكثر من 10 عمليات، ويتم أولا صنع أصغر دمية غير منفصلة. وفي ختام العملية تطلى كل دمية بالورنيش(محلول الصمغ)، ثم يبدأ الفنان بزخرفتها مستعملا الأصباغ الزيتيّة والمائيّة على حد سواء.

(5) **الماريونيت**: دمى العرائس المتحرّكة، تنسب إلى "ماري" (السيدة العذراء). ووفق هذه الرابطة "الدينية" حقق المخرج السويدي الشهير "انغمار برغمان" فيلمه المعروف "من حياة الماريونيت" (إنتاج العام 1980). وهو دراما بسيكولوجية تصور التلاعب الذي يطال النفس البشرية عندما تحرّكها خيوط مجهولة. إذ يغتال "بيتر" مومسا عابرة معتقدا أنها زوجته "كاترينا"، وفي ما بعد سوف يتبين له بأنهما معا يحملان نفس الاسم. تقسم الماريونيت فنيّا إلى أربعة أنواع رئيسيّة:

أ / دمى الخيطان: تمثّل أشخاصا، وحيوانات، أو أشباحا معلّقة بخيطان يجري تحرّيكها بالأيدي من أعلى، بحيث لا يرى محرّكها الذي يتموقع فوق سقالة عالية، ويدلّي الدمى بالخيطان أمام خلفية من مناظر دوّارة توحي بأنّ الدمية تسير بمجرد تحريك قدميها. وإذا كان المسرح صغيرا فإنّ لوحة سينوغرافية تشخّص مشهد التمثيلية توضع بين الدمية ومحرّكها فتحجب جسم المحرّك عن

fb/mashro3pdf

الأعين وتلوح الدمية فقط للنظارة مؤدية أدوارها. وقد ظهر هذا الطّرز من الدمى عند اليونانيون القدامى قبل أن ينتقل عنهم إلى الرومان. تعد الدمى الخيطانية بمثابة الطبقة الأرستقراطية في عالم الدمى المتحرّكة، إذ كانت ترتاد مجالس الملوك، وشكّلت مصدر الوحي والإلهام لعدة موسيقيين في مؤلفاتهم للأوركسترا والأوبرا.

ب/ دمى القفاز أو الكفوف: دمى تصنع على شكل كف، أو قفاز يوضع في اليد يعلوه رأس وعلى جانبيه يدان، بحيث تدخل السبابة في الرأس، ويولج كل من الخنصر والإبهام في يدي الدمية، أمّا الإصبعان الآخران - الوسطى والبنصر - فتنثنيان على راحة الكف. فتشرف عندئذ على المتفرج من فوق رأس محرّكها الذي يقف خلف حاجز يمنع ظهوره للمتفرجين. وهذا النوع من الدمى المتحرّكة هو الأسهل للتحريك ولا يستدعي متطلبات كثيرة كما هو شأن الأنواع الأخرى. وهو المعتمد اليوم والشائع في مسارح الدمى الشعبية، أو في مسارح دمى الأطفال في جميع أنحاء العالم تقريبا.

ج / دمى الأسياخ: دمى تحرّك من تحت، تحمل بإحدى اليدين وتترنّح يداها وقدماها بالأسياخ من قبل اليد الأخرى. تعرض عادة على مسرح يتميز بخلفية سوداء، حيث يرتدي محرّكوها ثياباً وأغطية سوداء تعمل على تماهي وتحايث أجسامهم ورؤوسهم مع

fb/mashro3pdf

سواد الستّارة أو يندسون خلفها، في حين لا تظهر إضاءة المسرح سوى الدمى. وهناك أنواع أخرى من هذه الفئة تحرّك بواسطة ساق أو صولجان أو مشدّ. وقد كانت في الماضي كبيرة الحجم (حوالي 1050 متر) ويتخذ محرّك الدمية موضعه وراءها. ظهرت في صقلية الايطالية، وكانت تستوحى في مؤلفات شعراء القرنين الثاني عشر والثالث عشر، التي من أشهرها "ملحمة شارلمان". وما زالت فرقة "أورلاندو" في أميركا تستعمل مثل هذا النوع من الدمى في عروض جماهيرية ضخمة، كما أنّها سائدة أيضا في جزيرة بالي (شرق جاوه)، حيث يقيم السكان ومعظمهم من البراهمانيين احتفالاتهم الدينية، فيعمل عدد غفير منهم على تحرّيك دمية ضخمة تمثل تنيناً ضخماً مترامي الأطراف، ويحيطونها بالكثير من طقوس التبجيل والتقديس لاعتقادهم أنّها مخلوق رباني منزّل أو كائن فضائي سقط من كوكب آخر نحو الأرض.

د/ دمى خيال الظل أو الظلال الصينية: دمى جانبية السمت والطّلعة مصنوعة من جلد رقيق، أومن قطعة كرتون مخرّمة لإظهار قسماتها، يحرّكها اللاعب (أو المخايل: فنان خيال الظل كما سمّاه ابن دانيال في القرن الثالث عشر الميلادي) من خلف ستّارة بيضاء مساحتها حوالي متر مربع، فيما تسلّط عليها أضواء كاشفة تطرح خيالها على الستّارة فيراها المتفرجون من الناحية الأخرى ظلالا متحرّكة نابضة بالحياة بمرافقة موسيقى إيحائية.

fb/mashro3pdf

وهناك صنف آخر منها يعرف بالدمى المائية المتحرّكة يقدم في جزر شرق جنوب آسيا، حيث يقام مسرح ألعاب الدمى فوق صفحة الماء بينما يجلس المشاهدون على الشاطئ يراقبونها وهي تميد كما لو أنّها تمشي على الموج.

(6) **دبوسية:** الدمية الشريرة والخارقة المستخدمة في سحر "الفودو" الأسود. تجهّز باستخدام القش والخشب والشعر ومزق الملابس والصورة الشخصيّة للضحية والطلاسم، مع إبقاء منطقة القلب في الدمية شاغرة لاستبدالها في ما بعد بقلب حيوان من أجل خلق رابطة نفسيّة غير مرئيّة بين الدمية والضحية. ولاحقا يتم غرس دبابيس مستدّقة في نقاط محددة من بدن الدمية لكسر نظام الطاقة لدى الضحية بغرض الاستيلاء على روحها. وكلّما تمّ دفع الدبابيس في الدمية تحسّ الضحية بالموازاة مع ذلك كما لو أنّ الوخز طال جسدها حتّى لو كانت متواجدة على بعد آلاف الكيلومترات. باستخدام أساليب "الفودو" ذات الأصول العائدة إلى جزر الكاريبي يمكن قتل الضحية في مدة 28 يوما (دورة قمرية واحدة)، ولكن إذا كان الشخص متماسكا وقويا على المستوى الفيزيقي والعقلي والعاطفي والروحي فإنه يصبح من العسير جدا على الساحر المهاجم قتل الضحية في غضون فترة زمنية قصيرة،

fb/mashro3pdf

وتستمر الهجمات لسنوات حتى تموت الضحية أو يموت الساحر.

(7) **مونيكا فرانكا**: دمية مانيكان مغربية لقيطة من اختراع المؤلف، المولع بشراء وجمع أعقاب دمى المانيكان من أسواق الخردوات، وتصليحها بطريقة مستحدثة للمؤالفة، مستمدة أساسا من تقنيات الفنان الألماني "هانس بيلمر"، الذي يرى بأنّ "الدمية مخلوق اصطناعي يتوفر على إمكانيات تشريحية مهمة، تخوّل اكتشاف ميكانيكا الرغبة، وتسقط أقنعة لاوعي الجسد". فرانكا ليست ذات شكل محدد أو حجم معين، لأنها مصنوعة من بقايا دمى مانيكان أخرى مستعادة من مختلف الأشكال والأحجام، أصابها البلى أو مسّتها قذارة الأيدي، ثم تخّلى عنها أصحابها لسبب أو لآخر. إما لانتهاء صلاحيتها باعتبارها تمثالا لعرض الملابس على واجهات المحلات التجارية (تسلّمت هذه الوظيفة سنة 1860 وكانت في البداية غفلا من الوجه، إلا أنها تطورت على يد المهندس البلجيكي "ستوكعن" عام 1869 عندما أضاف إلى جسمها التكويني وجها وشعرا طبيعيا)، أو لأنها أضحت بتراء قطعت يدها أو إحدى ساقيها. المؤلف باعتباره هاوي مجموعات وصاحب نزعة مرضية محمودة ذات صلة، أساسها ترمّيم المتلاشي وتنقّيته من الماضي، يحنو عليها ويمنحها حياة ثانية خالية من ربا حنين الصورة الأولى،

fb/mashro3pdf

تبدأ بإدخالها إلى ما يسميه بـ **"مصحّة الدمى"**، حيث تجري عملية تنظيفها وإزالة ما علق بها من غير جنسها وإفراغ أحشائها وصقلها. وفيما بعد في مرحلة تالية تنتقل إلى ما ينعته بـ **"مركز إعادة تأهيل الدمى"**، ليتم تشكّيل جوف آخر لها والاشتغال بالرسكلة على هيئة جديدة لها، غالبا ما تكون نتيجتهما وخيمة من الناحية الجماليّة لعدم تلاؤم المواد وتخارج القياسات، أو بالأحرى بسبب **"فشل المختبر في بعث الحياة في المادة"** كما تقول الكاتبة البريطانية "ماري شيللي". يمكن اعتبار مونيكا فرانكا واحدة من بنات عمومة **"فرانكنشتاين"** البعيدات، ممن شوّهت خلقتهن ومسخت **"على مكانتها فما استطاعت مضيّا"**. وفي خاتمة المطاف، تستقر مونيكا فرانكا داخل ما يطلق عليه المؤلف **"متحف الدمى"**، حيث تنتقى لها أزياء زاهية ذات بريق متألّق، وتوضع في واجهة زجاجيّة تحرسها أقفال بشفرات سرّية، ويكون المؤلف على الدوام هو الزائر الأوحد للمتحف، وبين الفينة والأخرى يعمد إلى تحريرها من أسرها ليستعملها كلعبة جنسية، مفترضا أنها واحدة من الـ **"دول سويت"** (هذا مع العلم بأنّه ليس سجينا أو بحارا!). ومناسبة هذا الكتاب، سوف تكون الفرصة الفريدة لعموم القراء لإلقاء نظرة أخيرة على بعض العاهات التي يهبها المؤلف لعشيقاته المفترضات من دمى المانيكان!.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

حكايات الفوتوغرام

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(فوتوغرافيا: ليو جيا [الصين])

[الصورة 3]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

جناح الغصّص

1. مصباح الإنارة العمومي المعطّل منذ أسبوع كامل، والباحة الخارجية الخالية من السّالكين في هذا الوقت المتأخّر من الليل، والحديقة الجرداء حدّ الوجع بعد وفاة البستاني العجوز جرّاء حادثة سير بليدة. 2. جميعها، متقطّعة، ومتلاحقة على نحو متعاقب، شأن **صور فوتوغرافية** تمرق على التوالي عبر قناة مسلّط ضوئي، تعمّق بداخلي حالة الفقد، وتقول لي كم هو رتيب وكم هو دائري هذا الوقت المتأخّر من دونك. 3. فأنا، قبل ساعات من الآن، أكبح تنفسي وأحبس نفسي في باطن العتمة مثل مسمار في الخشب. أنتظر خلف متكأ النافذة بإخلاص التماثيل، منزويّة في جلدي وكامنة وراء عينيّ.

fb/mashro3pdf

أترصّد ظهورك من فرجة في الستّارة الزرقاء المثقّبة بأعقاب السجائر، كي تنكسر حلقة الوقت، كل الوقت الرتيب والدائري والمتأخّر الذي أمضيته وسأمضيه من دونك. 4. أنا الآن، وتحديدا في هذه الأثناء، أصيخ السمع لنقرات المطر المنهمل على الدرابزين الحديدي للشرفة، وبصري مثبت على نافذتك. ما عدت أعرف من أين لي أن أبتعد، ولا من أين لي أن أقترب. ثمة برد يداهم جوفي، برد قارص آت من فصل آخر غير فصل الشتاء. وثمة غصّة ينفثها الصدر كي تلوب في المدى، غصّة حرّى لا علم لأحد بها عدا الزجاج. 5. هل للزجاج حقا علم بها؟ ومن سيكون بوسعه أن يجزم لي بقدرته على مشاركتي ما ينقضّ عليّ من أشجان ونبوءات لا أثر لتحقّقها؟ أليس منكوبا، واهن العزيمة، رقيق الحاشية، غائصا بين تدرّجات الظلمة والنور، وضائعا مثلي تماما في سديم العزلة وغربة الوحدة؟. 6. فنظراتي عبر الدرفتين المعدنيتين للنافذة حاضرة على الدوام لا تطرفها هنيهة أرق واحدة، بينما جسدك غائب عن حياتي، أبدا لا يبين سوى كشظايا حلم تتخلّله صحوة الأرق. ما عدت أعرف كيف لا طاقة لي بالقرب، ما عدت أعرف كيف لا طاقة لي بالبعد. فهنا، على شفّا هذا الزجاج، القريب مني، ينتابني شعور غامض بأنني أمسيت سمكة مسجونة في ضحالة ماء الأكواريوم. وهنالك، على أعتاب ذلك الزجاج الموازي، البعيد عني، أبدو الصورة المنعكسة للسمكة ذاتها المسجّاة في ضحالة الأكواريوم. 7. أما تحسّ بقسوة انتظاري؟ وأنا أتوسط كياني وحسرتي

fb/mashro3pdf

اللذين يشاطراني ألم ترقّبك في **الشقّة** المقابلة لشقّتك. معي حروق السجائر على الستّارة الزرقاء تنتظر، تنتظر معي. معي **الطابق الأول** ينتظر، ينتظر معي. معي الطوابق السبعة **للعمارة** برّمتها تنتظر، يا ما انتظرت معي. كلنا هنا دونما تّقصير ننتظرك منذ سنوات خلت، منذ وصلت، ذات يوم حارّ من أيام الصيف، **بمعطفك الشتوي** المزرّر حتّى العنق **وحقيبة** سفرك القديمة وأيضا **مظلّتك** المطويّة. **8.** أنتظرك في قرارة الصمت الساجي، من وراء مكمني المعتاد كما لو كنت مصوّرة قديمة تدسّ رأسها تحت قطعة قماش بحدقتها الشاخصة عساك تثب إلى الضوء كيما تفوز بحظوة احتجازك إلى الأبد، وكيما تتوقف أنت ولو لبرهة عن مخاتلتي وتضليلي، ولو لبرهة خاطفة فقط كيما تكفّ عن سرعة انمحائك وخفة تلاشيك. **9.** أنتظر **الرجل** الغريب المتحفّظ، العائد لتوه من معركة غير مظفّرة بتلك الشروخ المنطبعة على ملامحك عند أول مرة قدمت فيها لتصبح جاري في العمارة المحاذية، أنتظر رجلا استنفده الغياب واستهلكته معاشرة الآخرين، يريد أن يعلن للعالم بأنه ما عاد موجودا، لأنه طالما عاش في أماكن مغلقة، حيث لا يتردد أحد عليه، وحيث ينتشي الصدأ بتشويه تصّاوير لوحة، ويستميت الزمن ليحوّل منحوتة رخام إلى قبضة من غبار. **10.** أنتظر الطلعة الخفيفة والمرحة **لرجل ثان سكن بأعماقك** بعد أن تخطّى ظله وتخلّص إلى الأبد من أعباء العائلة والأصدقاء والمواعيد والمهنة، كما تراءى لي بعد مضي أيام قليلة

fb/mashro3pdf

من إقامتك بيننا، رجلا أضحى شبيها بظرف بريدي فارغ، وانتهى به المطاف أخيرا بعد فوات الأوان إلى مكان ما من تلك الأماكن التي يفد إليها المرء فور انتهاء صلاحيتها لديه. 11. أنتظرك لأنني أحبّ الرجال اللذين هم على غرارك مجهولي المنبت ومنحرفي المزاج، ممن تركت عليهم الحياة علامات خياطة غير متقنة، وبما أنهم لا يجيدون تصريف أيامهم، فإنهم يسعون طوال الوقت للعودة إلى الخلف على نفس آثار خطاهم بهدف محو الطريق المؤدية لهم. 12. هل تدري بأنني مازلت أنتظرك حتّى ولو اتسع هذا الانتظار أكثر من اللازم وأضحى مثل تثاؤب طويل لا ينتهي؟ فأنا لا أولد كل مساء مع كل ظلمة إلا إذا سطعت أضواؤك في الطرف الآخر. كم من ليال سهرتها حتّى الفجر، حتّى شروق الشمس، حتّى حلول اليوم التالي، ولم أرمق منك نأمة طيف يملأ فراغ النافذة والرؤية. 13. آه، كم هو قاس هذا الفراغ الفاصل بين النافذة والرؤية. فراغ طول الوقت عندما لا يحدث أي شيء، وفراغ السكون غير المجدي، وفراغ حنين يصارحك بأنه ليس ثمة أسوأ من ابتزازات البعد، وفراغ بخار الندى الذي يغمر المشهد المغشّى أمامي ويجعل الأشياء نائية وغريبة كأنما هي مؤثثات وقائع لا تحدث الآن، وإنما حدثت منذ مدة سحيقة. 14. لقد تعبت من إدارة هذي الحرب على جبهتين، وأضحيت في حاجة ماسة لمعرفة اسمك لئلا أنساك كسائر الآخرين الذين لا اسم لهم، ولئلا أنزف كل هذا العجز في حنجرتي إذا لم يبزغ

fb/mashro3pdf

لك أي أثر. 15. هل تدري بأنني سعيت لتلقين نفسي اللغة التي أفترض أنك تتكلم بها، والتي ما طرقت سمعي يوما سوى كحروف ألّفتها الظنون، لكني أخفقت على نحو فظيع، وما صدر عن حلقومي الأصمّ كان محض غمغمات وحشرجات تئن بجوفي مثل ريح في فلاة؟. 16. فمن لا دموع لها لتذرفها من مثيلاتي، ومن لا صوت لها لتنوح به من شبيهاتي لا تتألق خيباتها إلا إذا أورقت ظلالك من خلف تلك الستّارة البنفسجية. 17. فلترحمني من ذاك البنفسجي الفصامي الذي ضاق به صبري، وكاد أن يخسف بنظري. ذاك الذي علّمني أن العدم الحقيقي هو أن تحدّق بلا توقف في لون واحد لا يريم. لقد بلغت ريعان التعب، وأريدك أن تأتي إلى نافذتك مساء كل ظلمة مثلما يأتي عازف إلى ملهى صاخب لا يغلق أبوابه على الإطلاق. 18. هيا، اشحذ همتك وعجّل بنهوضك من على سرير النوم، ولا تكرهني على مغادرة هيئتي والطواف خارج جسدي. فأنا لا أود أن أتحوّل إلى ذلك الشيء اللامرئي الذي يخترق الزجاج والجدران والأبواب، ويتسرّب إلى شقّتك بحثا عنك كلما تلكّأت في الظهور. لا أرغب أن تكتشف يوما، ولو بالمصادفة البحتة، أنني أتقمّص باستمرار روح قاطنة الشقّة المقابلة، التي من المؤكد أنه تناهى إلى درايتك خبر انتحارها بصيدلية كاملة من العقاقير المهدئة، وبأنني أتلصّص خلسة عليك وعلى نزواتك الغريبة. 19. ماذا سيضيرك إذا ما أضأت الصالون؟ إذا ما أضأت حياتي؟! وفتحت الستّارة البنفسجية المسدلة،

fb/mashro3pdf

ثم أتحت لي فرصة أن أتمدّد من حيث أنا إلى الداخل عبر زجاج النافذة مثل عدسة مقرّبة للبعد أو مكبّرة للقرب. **20.** قل ماذا سيضيرك؟ وقد توجّب أن نتطلّع دائما من بعيد إلى رغباتنا المخنوقة والمتقلّبة كالشهقات داخل سجن أبداننا، وأن نتملّى بمراقبتها كما نتملّى زهرة استوائيّة بتويجات على أهبة التفتح. **21.** هيّا، لا تتريّث أكثر من هذا. أخرج أطراف تلك الساقطة، المفكّكة، الصلعاء، المشوّهة، المرقّعة بالبراغي، من علبتها الكرتونية كبيرة الحجم. هيّا، أخرجها، ثم ركّبها على بعضها في بعضها داخل بعضها ليكتمل بناء لعبتك المفضلة. **22.** دخّن سيجارتك النشوانة بعد أن تضع هيكلها المتراخي قدامك على الكنبة الجلدية. خاطبها بصوتك المترقرق الهامس في أذنيها، وتخيّلها تتوسل إليك لتوقظ شياطينها وتفض أوجاع غريزتها بالوصال. خاصرها وراقصها وقبّلها والتهم شفتيها. **23.** خاصرها، وأنا بينكما. راقصها، وأنا بينكما. قبّلها، وأنا بينكما. التهم شفتيها، وأنا بينكما مثل فترة صمت بين جريمتين، أمضغ بين أسناني قلبا ينغل بغيرة الغريمة. **24.** لا تعنيني خديعتك. ما عادت تعنيني لأن عهدك كان على الدأب خؤون، ولأنني كنت على الدوام من المقتنعات على نحو حاسم بأن العلاقة وحدها تموت وليس الحب. ولن أصدّق بتاتا أنك لم تعد نصف الغطاء الذي ألقيته على نصفي الثاني. بتاتا لن أصدّق بأن السرطان افترس كبدك وأنت لم تتجاوز بعد ربيعك الرابع والثلاثين، وبأنني أتصوّر فحسب في الجهة الأخرى من أوهامي وهلاوسي بأنك مازلت

fb/mashro3pdf

جاري في الشقّة المقابلة، وبأنك ما عدت قادرا بعد الآن على أن تتحوّل بدورك إلى ذلك الشيء اللامرئي الذي يخترق الزجاج والجدران والأبواب، ويتسرّب إلى شقّتي. 25. هيّا، لا تتريّث أكثر من هذا. واصل عبثك مع تلك الساقطة، الصلعاء، المشوّهة، المرقّعة بالبراغي، وأرني ما لا تستطيع سوايّ أن تراه. 26. واصله، وأرني حنانك الوجيز وغرامك القاتم. أرني المخرز المعقوف الذي كنت تخيط به شفتيها، وتقلع به عينيها من محجريهما. أرني القناع الذي كنت تضعه على وجهها. أرني الأغلال التي كنت تقيّد بها معصميها. أرني المسامير التي كنت تدقها في كعبي قدميها. أرني الوحشيّة التي كنت تكسر بها واحدة من سيقانها. أرني نصل السكين، الطويلة، الحادة، واللامعة، التي كنت تخرق بها بطنها حينما تبلغ بك اللذّة شأوا بعيدا. أرني أصابعك التي كنت تدخلها في فتحة الجرح الوهمي، وتدلق إلى الخارج كل القطن الأبيض وكل مزق القماش الجديدة التي تحشو باطنها. 27. أرني كيف أن بعض الاهتداء إلى جسد واحد مشتهى يتحقق أحيانا بضلال الطريق إلى أجساد أخرى خاسرة، سرعان ما ينتهي بنا المطاف إلى طعنها وبقر أحشائها. 28. لكم حلمت بأن يفتك بي ذات حنانك الوجيز وغرامك القاتم، لكم حلمت. بأن تخيط بالمخرز المعقوف ذاته شفتيّ، وتقلع بذات المخرز المعقوف عينيّ، لكم حلمت. بأن تضع القناع ذاته على وجهي، لكم حلمت. بأن تقيّد معصميّ بذات الأغلال، لكم حلمت. بأن تدق المسامير ذاتها في كعبي قدميّ، لكم

fb/mashro3pdf

حلمت. بأن تكسر واحدة من ساقيّ بذات الوحشية، لكم حلمت. بأن تخرق بنصل السكين، الطويلة، الحادة، واللامعة ذاتها بطني، لكم حلمت. بأن تدخل في فتحة جرحي الحقيقي ذات أصابعك، لكم حلمت. وبأن تدلق إلى الخارج كل القطن الأسود وكل مزق القماش الحائلة ذاتها التي تحشو باطني، لكم حلمت. 29. بل الأدهى من كل هذا، لقد جنح بي الحلم شاهقا بأن يستطير جنونك فتتخيّلني من لحم ودم، بأن تمزق أوصالي كالذبيحة المسلوخة، وبأن تحفظني داخل أكياس بلاستيكية بيضاء في ثلاجة. 30. من فضلك، أريدني قطعا متناهية الصغر، وإيّاك والأكياس البلاستيكية السوداء لأنها تذكّرني بالعزاء، وأنا لا عزاء لي سوى ما أتوق لأن تفعله بي. 31. لكم جنحت ولكم حلمت بأن تتذكّر كم عبدتك حين عشقتك، وأنت تخرجني من الأكياس البلاستيكيّة البيضاء وتنتظر ذوبان ثلجي ندفة فندفة وندبة فندبة، بأن لا تنسى كم عشقتك حين عبدتك، وأنت تزدردني تتلمّظني، شهيّة ولذيذة، مع كل وجبة مع كل نسيان. 32. هيّا يا حبيبي وقرّة عيني، لا تتقاعس في النهوض من رقدتك الأخيرة. 33. هيّا، فأنا سأظل في انتظارك، وأدعوك لأن تبارح شقّتك، لأن تدلف إلى العمارة المقابلة، لأن ترتقيّ السلالم حتّى الطابق الأول، لأن تصل أمام الشقّة الحاملة لرقم ثلاثة، لأن تدير المفتاح الذي تركتهُ لكَ عمدا في الباب، وتدخل. 34. هناك حيث ستجدني رابضة كالوديعة قرب النافذة أمام أهداب الستّارة الزرقاء المخرّمة بأعقاب السجائر، هناك حيث ستجد دميتك

fb/mashro3pdf

القديمة الكالحة، التي كنت قد أخفيت في حشوتها، بين ثنايا القطن ومزق القماش، كل أوراق يومياتك السريّة والمنسيّة التي لن يقرأها أحد!.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

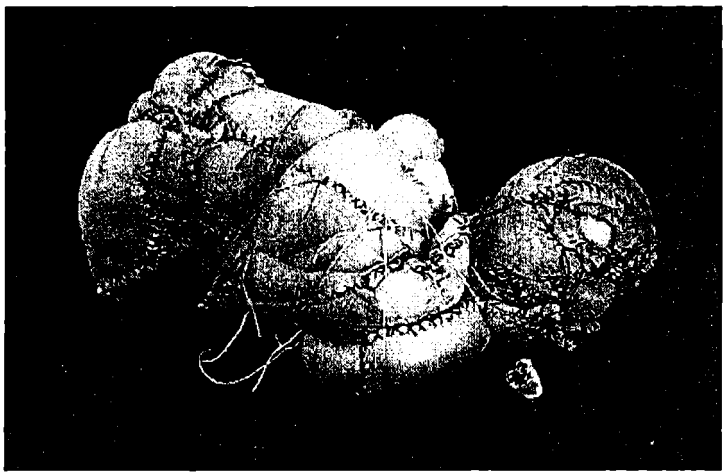

(تجهيز وفوتوغرافيا: لويز بورجوا [فرنسا])

[الصورة 4]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

جناح الأورام

الآن، وقد حلّ الأسوأ الذي لم يكن في الحسبان، ليس لي سوى الاعتقاد جازما بأن الشّرارة الأولى لكل ما وقع، انقدحت حينما خرجت إلى **شرفة شقّتي بالطابق الثاني للعمارة**، ببيجامة النوم، لأدخّن سيجارة.

صدّقوني، كل المصائب التي سوف أخبركم بأدق تفاصيلها، سقطت على رأسي دفعة واحدة بسبب رغبة بسيطة وتلقائية في تدخّين سيجارة، مجرد سيجارة لا أكثر.

fb/mashro3pdf

في الخارج، كانت السماء معتمة ومطيرة كنزيف داخلي، والوقت تجاوز منتصف الليل بقليل. وعلى الأرجح، بسبب تحالف الضجر والسهّاد وتحوّلهما إلى كآبة طاغية، مكثت ساهما على الشرفة لدقائق إضافية مثل قمر أعزل.

وكما قد تتوقّعون، دخّنت أكثر من سيجارة.

المهم، في غضون هذا الطقس شبه اليومي، الذي تدمنه النفوس القلقة كلما قلّبها السهر على مشواة العدم، حدث أن اختطفت نظرة إلى الأسفل على سبيل تهوية العزلة لا غير، ليقع بصري على رجل **بمعطف شتوي** مماثل لذلك الذي بحوزتي، يهرع من باب العمارة مجتازا الفناء الخارجي في اتجاه البوابة الرئيسيّة، وفي يده **مظلّة** مطويّة **وحقيبة** سفر.

هذا **الرجل**، الذي عنّ لي، أو ربما توهّمت لحظتها أنه من الممكن أن يكون **أحدا آخر** هو نفسي، يمرّ من أمامي وأنا ناظرهُ كما لو كان شخصا آخر غيري ولستُ أنا، أو كما لو كنتُ أنا غيره ولستُ هو، كان على الأغلب شبيهي المطابق أو بديلي الغريزي، الذي يزعم أنه نصفي الضائع، ويظهر بين الفينة والأخرى كي يلج حياتي عوضا عني ويزيل أي أثر لذاتي.

الرجل إيّاه، كان يدسّ بالمقلوب ساقا في الجيب الجانبي لمعطفه الشتويّ، الذي تعوّدت أنا أيضا على ارتدائه.

fb/mashro3pdf

تيقّنوا بأنني لا أهذي أو أختلق ما أحكيه لكم، كما أنه من سابع المستحيلات أن تنطليّ عليّ خدعة الرؤية إلى هذه الدرجة المحرجة من التضليل، حتّى وإن كنت في حقيقة الأمر عاجزا عن تأكيد مزاعمي من حيث أتواجد.

ثقوا بي، لقد كانت ساقا فعلا، عارية، متوسطة الحجم، وبالتأكيد غير آدمية ولا حيّة، بسبب أن جذرها كان موصولا بنابض، حيث لا مناص لي غير أن أرجح بكونها ساق دمية.

فيا له من مشهد! الزمن ما بعد منتصف الليل، مظلّة مطويّة، حقيبة سفر، ساق مقلوبة لدمية داخل معطف شتوي، ورجل غامض مثل توأم يمرق عابرا في أحراش روحك المقفرة، بالله عليكم هل فيكم من سيتظاهر أمام كل هذا بالحفاظ على رباطة جأشه أو كبح جماح دهشته؟.

إذن، في محاولة مني لإعادة الأمور إلى نصابها، ولرأب الصدع الذي غالبا ما ينشأ نتيجة صراع غير ودّي بين الواقع

fb/mashro3pdf

وحياتي الداخلية، التي تهرب إليها هواجسي عندما لا تعود الحياة في العالم الحقيقي ممكنة بالنسبة لي، قفلت عائدا من الشرفة إلى غرفة نومي.

ولما تفحّصت الدولاب، لم أعثرعلى أي أثر يذكر لمعطفي الشتوي، أو حقيبة سفري، ومظلّتي، بل الأنكى من ذلك، وجدت ملابس غريبة عني، وأحذية لا صلة لها بمقاسي.

أما المشوّش حتما والذي أثار هلعي عقب ذلك، فهو ما رأيته عندما كنت بصدد العودة مرة ثانية إلى الشرفة لحرق لفافة أخرى. إذ كانت الجدران الجانبيّة تغصّ **بصور فوتوغرافية** من مختلف الأحجام والوضعيات، أغلبها ألتقط خلال سنوات الشباب المبكرة، لوجه رجل باسم طلق المحيّا لم أتعرف عليه، لدرجة خلت معها أنني غريب في هذا المكان أو دخيل يقطن شقّة شخص غائب دون علمه، ترك لي فحسب على سبيل الذكرى أو السخرية السوداء سلسلة من البسمات الصفراوات التي تلوح على نحو مخادع وملغز خالية من أية دلالة.

ترى، هل عليّ أن أفهم أنّ بعض تلك البسمات تضمر لي أمواسا مدسوسة في القطن؟ بقية شرّ سابق أو ربما قادم؟ ومن أدراني بأنها في واقع الأمر بسمات محشوة بالفخاخ؟ جسر منبسط ومعلق في فراغ عال مفرط في خوائه تتهادى عليه رخّي البال، كي ينهار فجأة

fb/mashro3pdf

من تحت قدميك، فتهوي عميقا إلى الأسفل. ألا يحتمل أن صاحب البسمات يكيد لي في الخفاء ويعد لي عدة الانتقام؟.

إذ إنه في الغالب على علم تام بأنني لحظة وصولي إلى هذا المكان، كنت مسلّحا بالكثير من طرائق التمويه، وقد تخلّصت من أوراق هويتي السابقة بإحراقها، إلى جانب معرفته بإصراري على الاستتار عن الأنظار تحت اسم مستعار (كيف عرف بأنني سارق أسماء شتّى، أخبئها في حقيبتي كي لا تتسرّب مني، وأمضي على طرقات غريبة؟!)، تحاشيا مني الخوض في تفاصيل سيرتي الماضية وذكرياتي القديمة، آملا في التحول بعد مدة وجيزة إلى محض نكرة ليس بمقدور أي شخص آخر أن يهتدي إلى أي أثر أو علامة تدل على وجودها، عدا صاحب تلك البسمات الصفراوات.

وفي حمأة ما يدور حولي من أمور عصّية على الفهم، وبين جحيم غدوي ورواحي في متاهة الرواق، مبحلقا بعينين فارغتين في الصور الفوتوغرافية الحاملة لوجه الرجل المجهول، وبذهن مبلبل يغلي مثل سخّان ماء انتابته القعقعة، داست قدمي شيئا مّا

fb/mashro3pdf

ذا طبيعة صلبة، فندّت عنه للتوّ صرخة ألم مجلجلة لسعت جسدي رعبا لسع حديد الختم.

من المؤكد لحظتئذ، وعلى إثر هذه الحركة الرعناء غير المقصودة، أنني تجمّدت من الجزع، وأن عرقا باردا سرى عبر أوصالي جرّاء رجع صدى الصرخة الذي كمّم حواسي بغمامة سوداء.

وحالما أفقت مما ألمّ بي، اكتشفت ما سيؤكد أفظع الاحتمالات التي كانت تستبدّ بي: قميص وردي منكوش، تنورة ممزّقة، حشوة صوف بشعة تشرئب بعنقها كالجريمة من استدارة ورك، وساق محطّمة.

أما الأهم عندي والذي يستحيل نسيانه على الإطلاق، فهو تلك النظرة التي كانت تحدجني بها الدمية. نظرة معذّبة أشبه بجناح أنتزع من فراشة. نظرة وجه ملائكي متغضّن يشكو من تقلّصات عصبية. نظرة لا تطاق ضاعفت من قسوتها تكشيرة الفم، وجعلتها تجوس إلى أعماقي وتخرقني حدّ العظم.

عبثا حاولت أن أحيد بحدقتيّ عنها وأفلت من إسارها. حيث أدركت أن نظرة الدمية ستظل حاضرة حتّى لو أشحت عنها، مستقرّة بقاع سويدائي، متحرّكة في ما بعد داخل روحي، في تنفسي، في حركاتي، في نظرتي، وفي مجرى دمي.

fb/mashro3pdf

الخوف. هل كانت لي سابق معرفة به قبل الليلة؟ ثم في أي عضو من الجسد يعشّش طارحا بيوضه؟ وبأي منطق يتناسل وينمو؟ وهل هو ضروري أو مصيري حتى ندرك بعد فوات الأوان جمال الحياة من دونه؟ تخافون من الظلام، من النور الساطع، من القبح، من الحسن الفائق. تخشون من الحفر والأنفاق والسراديب، من الارتفاع الشاهق، من الانتظار لو زاد عن حدّه، من النّفس الأمّارة بالخسارات، من الوشايات الكاذبة، من الشيخوخة لو أبكرت، من الموت في غير موعده، من السرطان في ذروة البهجة، من الحياة إذا ما كانت عاهرة، من الصّمت المحتشد بالصغائر والنأمات، من الأماكن الضيقة المقفلة، من الانتحار، من الباطن، من المخفي، من الظاهر أكثر من اللازم، من البروستات، من الله. تتهيبون من الشيطان، من الذاكرة، من النسيان، من النجوم الطوالع، من القروض الفواحش، من العنّة، من الخيانة، من البرد، من الأبواب السريّة، من المرايا حتّى وهي صادقة، من السحر المختوم، من قنينة الغاز المفتوحة سهوا، من الكلاب، من الجرذان، من الأقنعة، من الصراصير، من الجار مرير اللّسان، من الجنادب التي لا تملك كمانا، من الجنّ الأزرق، لكن لا أحسب أنكم عشتم يوما ما تجربة الارتعاب من نظرة دمية؟.

fb/mashro3pdf

سعيت طيلة تلك الليلة المشؤومة أن أعيد الساق إلى موضعها الأول، لكنني أخفقت على نحو ذريع. بلا ريب، ليس بسبب تلف الصامول المعدني الذي يربط فخذ الدّمية بحوضها، وإنّما بسبب تلك النظرة الناقمة التي حدثتكم عنها.

إنّ بئر الروح هو الجسد، والعينان دلواه. وإذ يتوجّع الجسد، لن يكون للروح من وسيلة للصرخة عداهما.

نعم، عينا الدمية كانتا تصرخان بلا توقف، فحالتا بيني وبين ترميم ما اقترفته قدمي من خطأ فادح.

فألقيت بالساق جانبا، ثم جرّبت أن أغفو، غير أن النوم صاح بي هيهات، فبقيت ممدّدا على سريري. عينايّ مفتوحتان في الظلام، وأنا أتحرّق لإطلالة صباح اليوم التالي كي أطرد هذه الواقعة برّمتها عن كاهل ذاكرتي. غير أن الصراخ الذي كنت أظنّ أنّي أتصوّره وهماً فحسب، طفق يصل تدريجيا إلى مسامعي مثل عشب خشن يواصل نموه في الدواخل، ثم غزا زاحفا على كافة أرجاء الشقّة.

وكي أكون أمينا في ما أنقله لكم من غرائب أحوالي، أؤكد أن

fb/mashro3pdf

ذاك الصراخ كان على شكل أسراب صغيرة، سريعة، وضارية، تكرهني على الإنصات إلى دبيبها الجهنمي. دبيب غير منقطع لنمل شفاف، مقبل على التحوّل إلى وحش هائل ينهش كل ما يلقاه في طريقه.

ينهش الخشب والأسمنت والمعدن والتراب والزجاج وروحي.

روحي التي كانت على الدوام خليطا من خشب وأسمنت ومعدن وتراب وزجاج مطحون، يا ما مضغته الأيام، ثمّ بصقته.

ستقولون عني، لا.. أرجوكم لا تنظروا إليّ هكذا، ولا تنبسوا بما أنتم على وشك أن تنبسوا به، لقد طار له الفرخ وإنّه مختلّ آخر فقد سلامته العقليّة، لكن ما رأيكم بأنني لمّا ذهبت لأبحث عن الدمية في الرواق لم أجدها؟ لو كانت نيتي مغرضة ورأسي به مسّ، لقلت بأنّ واحدا منكم من أقدم على تغيير موضعها، ويتعمّد منذ بداية هذه الحكاية أن يوقعني في أحبولة البيدق التائه بلا هوادة على مربعات رقعة شطرنج.

fb/mashro3pdf

كللت محاولاتي للبحث عنها بالفشل الكامل وبلغ مني التعب أشدّه، فأبت إلى سريري بعينيّ المبحلقتين مجددا في الظلام.

الدمية كانت هناك، انظروا جيدا، إنها هناك في باطن الدولاب. صحيح أنها غير بارزة للعيان، لكنها بالتأكيد هناك. تتحرّك، تنبض، تتنفس، ترى، تسمع، تغمغم، وتصرخ. ستصّرون على أنها غير موجودة، غير أنني سأدعي العكس لأن عينيها كانتا تبرقان ببرودة مميتة كالقطة. ليست قطة حقيقية في دولاب، بل دمية تبرق عينيها ببرودة مميتة مثل قطة في دولاب.

الدمية كانت هناك، ويحكم! ماذا دهاكم؟! انظروا جيدا، إنها هناك تتموّج بالعشرات، بالمئات، بالآلاف، تتحرّك، تنبض، تتنفس، ترى، تسمع، تغمغم، وتصرخ حتّى وإن كانت مطبوعة فقط على ورق التغلّيف الذي يكسو الحيطان.

مطبوعة على ورق التغلّيف! لكن من أين ينبعث كل ذلك الشهيق والزفير الحارّ الذي يلفح وجهي؟ ولم لا تتوقف تلك الصرخات المجسّمة عبر جدار غرفة النوم على التدّفق مثل زحف جحافل من النمل في ممرات جمجمتي؟.

خمدت كالقتيل إلى حدود ما بعد الظهيرة. كانت أمنيتي أخذ دوش حالما أستيقظ. داخل حوض الاستحمام، وأنا في جوفه، تدلّت يدي مرتخية على حافته والدم يسيل من معصمها شاقا طريقه في

fb/mashro3pdf

اتجاه قرارة الحمام منسابا، وغزيرا، ومرقّطا بنقط سوداء تشوب حمرته القانية.

في الحقيقة، لم تكن تلك اليد يدي، ولا المعصم معصمي، ولم أكن أنا ذاك الشخص تماما، فعلا الجسد جسدي، بيد أن إحساسي بالماء انعدم، ونزف الدم بدا كما لو أنه ينزّ من صنبور مكسور في جهة بعيدة عني. كل ما أشعر به، منشفة صابون ناعمة تتنقّل على أطرافي مثل أصابع رشيقة على خشبة الحائك، أدركها تجيء وتذهب كما لو كانت آتية من عمق حالة إغماء، وحينما فتحت عينيّ كانت الدمية تعصر آخر قطرات المنشفة، وترشقني بصفرة ابتسامتها.

يوافيني الصحو مثل مقبس نور أعيد وصله. فأستيقظ معتقدا أني ميت، ميت يحلم فحسب بأنه حيّ (أتراني مشيت عن طريق الخطأ داخل حلم الرجل الغريب شبيهي؟ وهل هو حلم كاذب سيقوم بمحو نفسه بنفسه؟ أم تراه سيكون حلما من طبيعة تسلسلية، وسوف يبدأ

fb/mashro3pdf

في كل مرة من المقطع الذي انتهى عنده في الليلة السابقة؟). وإذ ذاك، وددت أن أفرج عن جسدي من السرير. أن أنهض وأخرج للتروّيح عن هذا الجسد الذي أسأت استعماله على امتداد ليلة ونصف نهار بأتّمهما. وجدتني معتقلا، عالقا في حدوده المنيعة ولا قبل لي بتحريكه. ثقل قاهر كان يشدّني تحت البطانية كما لو أن ساقي اليمنى ربطت إلى عجلة شاحنة ضخمة.

لم يسعفني تكرار المحاولة، والعجلة لا تدور أو تتزحزح قيد أنملة عن موضعها، فسحبت البطانيّة بنرفزة واضحة، لأصعق بانتفاخ شنيع كان يطبق على دواليّ الوريدية ويمتدّ منتشرا من الركبة إلى الربلة.

كم هو مقيت هذا النبت الشيطاني الذي أزهر في جسمي!.

جفّ حلقي من فرط ما خانه الريق، وانسكبت من مآقيّ دموع مريرة لهول اليقطينة التي استوطنت قدمي. تيبّست جوارحي ولم أعد قادرا على الاختلاج بأدنى حركة. كنت أصرخ ملء حنجرتي، بيد أن ذاك الصراخ ولسبب غير مدرك كان يرتدّ إلى دواخلي كأحجار تتساقط في عمق بئر، أحجار تلو أخرى غير أنها لا تصل بتاتا إلى القاع. بل كنت أتمادى في الصراخ بكل ما أوتيت من يأس وأمل، لكن ما من أحد في الجوار يمكن أن يغيثني أو على الأقل يساعدني على إغلاق أفواه آلامي. أحسست بأنني اغتصبت، وأن

fb/mashro3pdf

حرمتي انتهكت، بناء على قناعة متمكنة مني مفادها أن الأقدام هي أصدق وأشرف ما لدى الإنسان، الأقدام التي لا يدّخر جهدا من أجل صيانتها بكل ما تيسر له من عناية الجوارب ولطفها.

دعوكم يا سادة يا كرام من الجوارب راجيا أن تصدّقوني للمرة الأخيرة، وركزّوا معي لو سمحتم على اليقطينة المتمادية في توّرمها المريع، على الازرقاق الغامق الذي كساها، على القيح، على الصديد، على رائحة الجيفة التي أضحت تفوح مني ومنها.

ركزّوا معي على المرهم الذي تطليه على جلد ساقي أصابع قدّت من سيليكون مؤججة وجعي على نحو رهيب لا يحتمل.

ركزّوا معي على الرعب الذي يفغر فاه كلما دنت الدمية الخبيثة من سريري، وكلما اتجهت بأسنانها السوداء المتقطّرة باللعاب ناحية اليقطينة المتعفنة، وقد تفتّحت شهوتها لقضم شريحة كاملة من بدني.. وفي إثرها تسير عشرات الدمى ذوات البسمات الصفراوات اللواتي تنتظرن بفارغ الصبر حصتهن من اللّحم الطازج!.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

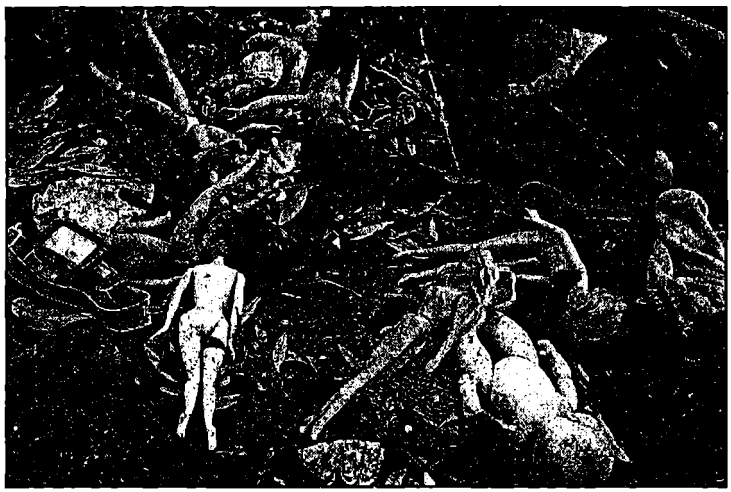

(فوتوغرافيا: إيكو هوشوي [اليابان])

[الصورة 5]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

جناح الهلاوس

(1)

لنزعم بأن الحكايات قابلة للتصادي على شرعة الأواني المستطرقة. الحكايات إيّاها التي يتفرّق نسبها بين المخطوطات الضائعة:

(2)

المخطوطة الأولى

في 10 نوفمبر من العام 1940 بمدينة "سان لويس دي لالوما" المكسيكية، عثر فتى يافع في أرض خلاء على مفكرة قديمة

fb/mashro3pdf

مسفّرة بجلد غامق اللّون أتلف البلى نضارته. وعندما فتح دفتي هذه الوجادة التي يعلوها الغبار، ألفى أوراقها مصفرّة تفيض بحروف ضئيلة ضيقة. حروف دوّنت بخطوط مائلة مرجّفة لم يعتورها أدنى تشطيب أو خدش. كانت تختلّ البياض برمته، دون مراعاة للحواشي أو احترام للمستهلات. لم تكن توجد في صفحات هذه المسوّدة، المبقّعة بلطخات القهوة والمثلومة بحروق السجائر، أية مساحة فارغة.

ثم شرع في قراءة ما يلي:

"... خلّف "جوليان سانتانا" زوجته وأولاده في مدينة أخرى، ليستقرّ بجزيرة "لاس مونيكاس". وفي غضون الأيام الأولى لإقامته، غرقت صبية مجهولة في مياه القناة. ملتاعا بهذا الخطب الجلل الذي شهده بكلتا عينيه، أضحى "جوليان" مهووسا بالوجه المفزع لهذه الصبية، التي كان يراها في كوابيسه بثوبها الأبيض الجميل المزيّن بشرائط مزركشة، وهي تصارع الموت وألياف نبات زنبق الماء، دون أن ترخي قبضتها المحكمة عن دميتها الصغيرة. وذات يوم، وجد دمية بساق واحدة ملقاة في صفيحة القمامة، فعلّقها بخيط على شجرة. وفيما بعد، أصبح كلفا بالبحث عن دمى أخرى من نفس العينة وبشغف شدّ وثاقها إلى أشجار الجزيرة، حتّى تحوّلت هذه العادة إلى طقس يومي واظب عليه طيلة حياته القصيرة من أجل

fb/mashro3pdf

سلام روح الصبية الغريقة. سكان الجزيرة وزوارها من السياح من مبلغ تأثرهم بحكاية "جوليان"، عمدوا بدورهم إلى البحث عن دمى مهملة وصنعوا منها أشرطة طويلة ومهيبة على الأشجار، لاعتقاد الجميع بأنها تعويذات تذهب غائلة الخوف وتحمي أولادهم من مخلوقات الجحيم وآفات القدر. في اللّيالي التي تعصف فيها الريح بقوة، كانت أغصان الأشجار ترتجّ كأنغام متوحشة، ثم تبدأ جوقة الدمى في توقيع رقصة الجثامين.

عقب ذلك بسنوات قليلة، تمّ العثور على "جوليان سانتانا" غريقا في نفس موضع غرق الصبية المجهولة بمياه القناة التي تحيط بالجزيرة...".

(3)
المخطوطة الثانية

في 10 نوفمبر من العام 2016 بمدينة " فاس" المغربية، سوف يعثر عجوز هرم، أثناء تقليبه لملفات وأضابير منسيّة داخل أحد أدراج مكتبه، على مفكرة قديمة مسفّرة بجلد ناصع اللّون لا تشوبه ذّرة غبار واحدة. وعندما سيتصفّحها، سوف يتعرّف شيئا فشيئا على طريقته الخاصة في التحبير، حتّى وإن نسيّ

fb/mashro3pdf

تماما مضمون المفكرة أو السياق المرتبط بها. فالأوراق كانت مصفرّة تفيض بحروف ضئيلة ضيقة. حروف دوّنت بخطوط مائلة مرجّفة ومليئة بالتشطيبات والخدوش. احتلّت البياض برمته دون مراعاة للحواشي أو احترام للمستهلات. لكن ما أثار انتباه العجوز الهرم، هو أن جزءا غير هين من صفحات هذه المسوّدة، المبقّعة بلطخات القهوة والمثلومة بحروق السجائر، كان منتزعا من جذر المفكرة.

ترى، من أقدم على بتر هذه الصفحات الناقصة؟ تساءل في قرارته، ثم شرع في قراءة ما كان قد كتبه قبل أعوام عديدة، وغرق الآن في ليل الذاكرة شديد الحلكة:

"...بسبب ما أدركني من كدر وضجر، جعلاني مثقلا بالهم ومسحوقا بالوحدة، خرجتُ لأتمشّى كعادتي كل مساء، علّني أفلح في أن أزيح عن عاتق صدري شيئا من القنوط الذي يحكم الخناق عليّ.

استغرقت جولتي وقتا لا أستطيعُ تمييزه بدقة. إذ إن استيعاب ذاكرتي لانسياب الزمن، كان على الدوام عبارة عن لفيفة تنسلّ منها، في اتجاهات متشابكة، خيوط منقطعة لا يصلها ببعضها البعض أدنى رابط.

فعلى ما يبدو، الخيوط كانت خطى عشوائيّة شرّدتني شمالا

fb/mashro3pdf

وجنوبا، ودفعتني لأن أهيمَ على وجهي بلا هدف في جادات خالية مقفرة.

جادات غمرها ضباب كثيف، وجعلها تبدو لي من فرط انفصالها عن الفضاء الذي تنتمي إليه، كأنها ديكور مستعار أو محاكاة رديئة للجادات الفعلية.

أمّا الانقطاع في نسيج تلك الخيوط فقد كان على الأرجح "حمار ليل" طاف بي شرقا وغربا، وقادني لأن أسلك شوارع شاحبة لا أعرفها.

شوارع ولّدت لديّ الانطباع الملتبس بأنها محض ظلال أطلال، تنتمي إلى ماض سحيق، ولا تمت في واقع الأمر بأية صلة وثقى إلى حاضري.

وفي لحظة، حينما أحسستُ بأن الضياع أضحى مكتملا، يبعدني في كل حين عن نفسي، ولا يرجعني إلاّ لماما إلى نفسي، عدت أدراجي مهتديا بالصدفة العمياء وحدها، ومخترقا سجافة الظلام المشتدّ مثل دوامة حبر لا تني في التمدد والاتساع، من نفس الوجهة التي أحسب أني قدمت منها.

لستُ واثقا من أنها فعلا الوجهة الصحيحة. فمن يقضي مثلي سنين مديدة في التسكّع بغير هدى بين خرائب الأعماق كممثل وحيد داخل شريط يبثّ في صمت من غير صوت أو وقائع ملموسة،

fb/mashro3pdf

تنتهي به عاقبة التيه إلى عدم انتمائه إلى أي مكان على الإطلاق.

إنه ينتمي فحسب إلى سراب مكان من ابتكار الحواس.

ولما صرتَ، حسبما افترضت، على مشارف الوصول. وقفتَ تحت مصباح نور عمومي في الجهة الأخرى من الرصيف المقابل **للعمارة**، التي من المحتمل أنك تسكن بها، ومسحت زجاج نظارتيك الشبيه بزجاج قاع كأس، ثم أشعلت سيجارة.

ناجيتَ دواخلك قائلا إنها الأخيرة، قبل أن تمضي مباشرة إلى النوم.

وبينما أنتَ تسحب الأنفاس وتنفث سحائب الدخان، تلهيت لبضعة دقائق برفع ناظريك إلى **شرفة شقّتك** الواقعة **بالطابق الثالث**، ورحت تتوهّم نفسك تطلّ من هنالك.

تدخّن بدورك سيجارة تحت مصباح نور معلّق بسقف الشرفة، وتتطلّعُ بريبة إلى الجهة المعاكسة من الرصيف الموازي للعمارة، حيث تلوذ هيئتك المكرّرة تحت مصباح نور عمومي، وتدخّن على منوالك سيجارة.

يحدث لكَ هذا باستمرار، كما يجوز أن يحدث لآخرين ينحدرون من نفس طينتك. المهم أن يلتصق بهم إلى الأبد شعور نابع من الجانب القاتم والمتجهم لوعيهم بأن أرواحهم تمّ السطو عليها ذات يوم في غفلة منهم.

fb/mashro3pdf

على غرارك، كان **شكلك المطابق لأصلك** يسحب الأنفاس وينفث سحائب الدخان. وعلى شاكلته، كنتَ بكيفية متزامنة تسحب الأنفاس وتنفث سحائب الدخان. وكلما أمعنت عيناك النظر إلى السحائب المتعاقبة والمتراقصة في مجرى الهواء البارد، كففت عن أن تكون موجودا، تماما كما لو غدوت مادة مصنوعة من الأثير.

بالتأكيد، لا يتعلق الأمر بأي غبش في الصورة بحكم حتمية البعد، أو بانسحاب إلى العتمة خلف ستّارة الشرفة، أو بمحاولة للاختباء وراء عمود النور، وإنّما يتعلق بانمحاء حقيقي مرده إرادتك القوية في التلاشي. فكنت تختفي تارة من مكمنك على الشرفة، ثم يصبح الوضع مقلوبا على نحو مترادف، فكان جسدك يتبخّر تارة أخرى من موقعك تحت مصباح النور العمومي.

وفي الحالتين معا، كنت لا تلمحُ من هذا المشهد المتناظر سوى أطياف من الدخان، أو بالأحرى يستحيل كيانك المزدوج الذي صيّرته بصنيعة خيالك غير مرئي، مجرد أطياف من الدخان.

ولكن، عندما طفق المطر في النزول مدرارا على حين غرّة، تحتّمَ عليّ أن أضع حدا سريعا للعبة الترائي هاته. وبمجرد ما عمدتُ لإخماد آخر أنفاس السيجارة بمقدمة حذائي، أمسيتُ أنا ذاتي مرة أخرى.

فرفعتُ حينئذ ياقة **معطفي الشتويّ**، وفتحت **مظلتي** الواقية، ثم

fb/mashro3pdf

تأهّبت متعجلا لقطع الطريق من أجل الالتحاق بشقّتي.

غير أنه في نقطة غير محددة من تلك المسافة التي تفصلني عن البوابة الرئيسيّة للعمارة، مرق من قدامي فجأة مثل **كبسة خاطفة على مصوّب آلة تصوير**، ما خلتهُ كلبا سمينا مفلت الزمام، فحانت مني عندئذ التفاتة تلقائية إلى الوراء، لأبصر الكلب على بعد ما يناهز خمسين أو ستين خطوة مني، يغطس نابحا في مياه نهر غريب طارئ، انبثق بغتة في حقل رؤيتي كأنّه تجلّ قادم من عالم آخر أو لغز محيّر طلع لتوّه من غياهب المجهول.

محال ذلك! ففي حدود إدراكي لإحداثيات المنطقة، لا يوجد أي نهر في هذه الأنحاء، ولا يمكن أن يوجد إلاّ إذا كنت قد اختلقتهُ اختلاقا.

إن كلا من الطريق والكلب فكرتان عاديتان واعتباطيتان جدا، لكن إذا ما قرناهما بفكرة ثالثة متنائية عنهما يمثّلها النهر. لحظتئذ تتكشّف المفارقة ويبدأ هذا المكعب بإشاعة الرعب في الخاطر. الطريق والكلب منسجمان تماما، لا يوحيان لوحدهما بأدنى رعب إذا ما كنا نجهل الفكرة الثالثة الناقصة، بيد أنه بمجرد ظهورها، يختلّ الاتساق، وتنقلب المعادلة رأسا على عقب، ليصبح الرعب مضمونا.

أما عندما استدرتَ لتستأنف مسارك إلى الأمام، وأنتَ مندهل

fb/mashro3pdf

ومشوش تماما من لا منطقية ما لمحت، فتهيّأ لك أن كتفك اصطدمت بشكل طفيف وعن غير قصد بكتف صبي نحيل، كان على الأغلب يركض في أعقاب الكلب السمين، وهو يمسك بإحدى يديه دمية صغيرة.

وقبل أن تسنح لكَ فرصة تحريك جذعك والانعطاف صوبه لتقديم الاعتذار له، شعّ بين الصبي وبينك ضوء مبهر انبجس من العدم، وغمر ظلالكما المتقاطعة بنفس سرعة سيارة مخبولة اندفعت في اتجاهكما، لتسمع بعدها من خلف ظهرك بأمتار وجيزة، ما ظننته صوت ارتطام حاد وصرخة ألم مزقا هدأة السكون.

ونظير فيلم انقطع في ذروة التصوير داخل بكرة كاميرا، ثبتتَ في موضعك متصلبا لهنيهات لا تدري عددها والقلب بين أضلاعك خافق. وبالطبع، خذلتك خفة البديهة اللازمة لاستقصاء مآل الحادثة، لرصد نوعية السيارة، لونها، وأرقامها، أو لتبيّن قسمات السائق الذي أطلق بلا تأخير المحرك المسعور للريح.

وإذ أفقت من شرودكَ وجزعك بعد فوات الأوان، متوقّعا أن ترى أمامك الصبي النحيل مسجّى بلا حراك على أديم الإسفلت المبلل، لم ترمق في مهب الطريق غير أثر العجلات ودمية صغيرة ملطّخة كليا بالدماء.

أين اختفت جثة الصبي، إذا؟!.

fb/mashro3pdf

إنّ صدمة عنيفة كهذه تفقد أيا كان صوابه وتشلّ تفكيره، لاسيما إذا غاب عن باله بأن معظم الظواهر المحيطة بنا لا تأتي غير متوقعة إن هو خمّن فيها بعناية. فحتى الظواهر التي قد يحسبها غير اعتيادية، هي في الواقع ظواهر كان من المقرر لها أن تحدث أو ربما حدثت قبل هذا التاريخ في مكان آخر. وإن صادف المرء أحداثا خارج المألوف، فهذا يعني غالبا أنه لا يفكر في الأمور مليّا أو لا يعلم بأن ما وقع يمكن أن يتكرّر إلى ما لانهاية.

وبناء على هذه القناعة التي تبادرت إلى ذهني في تلك الأثناء، تجاوزتُ ارتباكي واستعدت تماسكي، ثم تحركتُ رأسا لأرفع الدمية الصغيرة من على الأرض.

وحالما سوّيتُ انحناءة قامتي ولمستها بأناملي، لا أعلم لم ساورتني الخشية في أن تلك الدّمية المعفرة قبيحة المحيّا، مصابة بمرض سرّي وبيل يمكن أن يعديني. مرض أشبه بعقاب طويل المدى لكوني لم أشأ أن أغادر هذا العالم في اللحظة المناسبة، ويلزم عليّ ابتداءا من الآن فصاعدا أن أسوم الألم والأسى المترتبين عن ذلك.

أيكون الصبي قد لقيّ مصرعه عوضا عني؟ وهل هو صبي بالفعل، خاصة أنني لم أتحرّ ملامح وجهه بالوضوح الكافي؟ وإذا ما كان أمر حلوله بديلا لي صحيحا تماما، أعليّ أن أكابد وخزات

fb/mashro3pdf

تبكيت الضمير ما تبقّى لي من عمر؟ وهل ثمة عطب جسيم يتعذر إصلاحه سوف يطرأ بحياتي عما قريب؟ لو أنني أمسكت بزمام الكلب في حينها وكبحت اندفاعه الجامح، أكان سيظهر لي ذلك النهر الذي لا يظهر لغيري؟ هل كان ما شاهدته كلبا فعلا، أم "كلبا فارغا" هرب من إحدى قصص "بوتزاتي"، أم ربما كان حيوانا آخر؟ ولو التفتت لتفقّد الصبي في الحال بعدما دهسته السيارة، فهل يا ترى كانت المجريات لتؤول إلى نتيجة مغايرة لتلك التي سبق أن تنبّأت بها بطون المخطوطات الضائعة والضالعة في حبك مصائد التصادي؟.

ومنذ تلك الليلة الرهيبة، بعد أن ارتقيتَ سلالم العمارة ودلفت إلى شقّتك، لم يغمض لك جفن. فمظهر الدمية الصغيرة الممددة إلى جانبك على السرير، ما فتئ يغذي بدخيلتكَ حرقة غياب الصبي على ذلك النحو الفاجع.

إنها الذكرى الأليمة التي ستظل مطبوعة وراسخة في صميم أعطافك مثل جرح تحت الجلد يمعن في تقادمه ويستعصي على البرء.

ولاحقا، استنكفتَ عن الخروج نهائيا في واضحة النهار. النهار صار مخيفا، ولم تعد ترتاح إلا وأنت في بهمة الديجور. إذ إن الكثير من الضوء يصبح في لحظة ما من حياة رجل مثلك وجعا عليك تحاشيه. كما طال بدنك ولسبب لا تفسير له تغير مفاجئ وغير قابل للتصديق.

fb/mashro3pdf

فأوصالك اكتسبت رخاوة عجيبة، ولحمك أضحى في طور تحوله التدريجي إلى مطاط أو ربما إلى شمع أو بورسلين أو مادة مشابهة، كما لو أن جسدا جديدا استهل عملية احتلال جسدك السابق. ناهيك عن هذا، شعرك طال وغاضت أذناك!.

أما لغتك فصارت لسانا عييّا، أحرفا مشتّتة، لغوا مترنّحا، رطانة فارغة، وصوتك ابتعد عميقا داخل حنجرتك.

ثم استحوذت عليكَ بشكل لم تفهمه عادة الانطلاق في غاشية الليل وبعهدة قبضتك **حقيبة**، بحثا عن الدمى الملقاة في مكبات النفايات ومطارح المهملات. ليس لديك تبرير معقول لملابسات هذه الهواية المجنونة، لكنك كنت منوّما مغناطيسيا، مجرورا، مسكونا بخوض الدروب، مستطلعا عنها هنا وهناك، وأقصى مهجتك أن تقع واحدة منها طوع يديك، لتضعها بفرح طاغ في جوف الحقيبة.

جرّدتني طوائف الدمى من العقل، وغاليتُ في مصاحبتها كما يجدر بأي صائد دمى اقترنت حناياه إلى درجة التوحد بحنايا طرائده. وكلما تناهى إليّ من البعيد صوت نباح كلب، وجدتُ نفسي أبارح شقتي حاملا الحقيبة العامرة، وأجتاز تحت رشق المطر ذلك النهر الذي ربما ابتدعه نظري.

وفي الضفة الأخرى، حيث ثمة جزيرة مترامية المساحة، كنت أعكف على ترصّيع الأشجار بالدمى.

fb/mashro3pdf

لا أتذكرُ كيف كنت أذهب إلى هنالك، ولا كيف أعودُ إلى شقّتي. كنت أتفرّس مشدوها فحسب إلى طين الطمي الذي أجده فيما بعد على ملابسي وعلى لحاف سريري.

النباح كان يهتاج كل ليلة والنهر يزداد هديره، كأنما يطالباني بجلب المزيد من الدمى.

الدمى التي كانت مواكب تتوالد وتتكاثر فوق الأغصان مثل طيور ضخمة لا تطير. طيور معلقة بالخيطان أو بالأسياخ، أو أنصاف طيور تحرّكها كفوف وهمية. وعندما تعول الريح، تعمني غبطة أن أكونَ هناك، منفردا بها، مستلقيا فوق ظهري على العشب، أرقب جمال ما صنعت، أكلمها بلغتها كما لو أنني واحد منها، أصيخ السمع، السمع إلى أقصاه إلى أنينها، إلى همساتها، إلى اصطخاباتها، إلى ارتعاشاتها، إلى تموّجاتها، إلى ظلالها، إلى ارتطاماتها، إلى تشنجاتها، إلى دورانها، إلى حركتها النّوّاسة المجنّحة، إلى ألحانها المتداخلة الساحرة التي تقول لي بأن هذي الأشجار لم تعد تعرف أنها أشجار، وبأن هذي الدمى لم تعد تعرف بأنها دمى.. أرهف الجوارح، الجوارح بأجمعها إلى موسيقاها الجهنمية التي تنادي صبيا نحيلا كان يولد من الإيقاع، ويشاركها التأرجح كتفا لكتف في انسجام هارموني وأدائي خليق برقصة "أحواش".

بل، بدوري كنت أعلّقُ نفسي على أفنان الشجر، وأتمايل معها

fb/mashro3pdf

على خفق الريح. أتمايلُ، فيبرد جمر الصدر. أتمايلُ، فتخرج شظية حزن من القلب...".

(4)
المخطوطة الثالثة

في زمان ما، بمكان ما، عثر أحدهم على مفكرة قديمة مسفّرة بالجلد. ففتحها، ثم شرع في قراءة ما يلي:

"...ذات ليلة ماطرة، وهو يخرج من سرير النهر، متأبّطا حقيبة فارغة، بعد أن مارس هوايته المعتادة. هرع في لهف لقطع الطريق بغاية الوصول إلى شقّته، بيد أنه لم ينتبه إلى السيارة التي كانت منطلقة صوبه من الجهة الأخرى بسرعة خارقة. لا أحد سوف يعثر على جثته، فقط سيجدون في مهب الطريق دمية صغيرة ملطّخة كليا بالدماء..رجاء، إذا ما كنت عابرا بالصدفة من هناك، أن لا تقدم على ارتكاب حماقة رفع تلك الدمية الشعثاء من على الأرض!...".

fb/mashro3pdf

(فوتوغرافيا: كاتي هورنا [هنغاريا])

[الصورة 6]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

جناح العاهات

في المسافة الفاصلة بين نزولي من التاكسي الأحمر الصغير، ووصولي إلى مدخل العمارة، اصطادني على حين غفلة من السماء التي شقّها البرق، وابل مطر غزير، ثم خّلف هندامي بمظهر شائن.

لحسن الحظ، من المحتمل أن لا يلمحني في مثل هذا الوقت المسائي المتقدم جدا أي أحد من الجيران الموهوبين بقريحة السهر في الشرفة أو التلصّص من النافذة، كما من المرجح أن لا أقع تحت طائلة نظر حارس السيارات الذي لا تنجو من كمائنه الليلية شاردة أو واردة.

fb/mashro3pdf

لا يهم، وليذهبوا جميعا إلى الجحيم، فما هي سوى لحظة، وأصل.

لحظة لا غير، ولو أنها تبدو لي كأنها دهر بتمامه وكماله، بسبب حالة عصابية ملازمة لي، في شتّى الأماكن التي قطنتها في السابق، من أن أجدني مضطرا، قبل موافاتي لمخدعي، لأن أتورّط في تبادل التحايّا المجانيّة مع واحد من تلك المخلوقات البغيضة والفضوليّة، التي تشاركني علب الكبريت، حيث ننحشر كأسراب النمل.

إنها الألفة المزعجة التي تنتهي بأن تتحوّل إلى شكل من أشكال الوفاء غير المجديّة. الألفة عينها، التي طالما نفّرتني من أماكن مماثلة، وعجلّت في كل مرة ببحثي عن مسكن جديد.

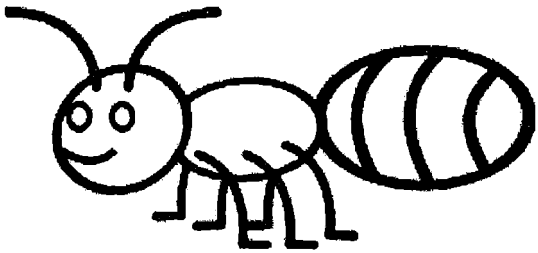

كنت نملة ضئيلة ووحيدة، في طريقها لأن تصعد، بعد لحظة، السلالم بأرجل مهدودة وأنفاس متلاحقة، في اتجاه علبة الكبريت الخاصة بها.

fb/mashro3pdf

وبعد تلك اللحظة مباشرة، باشرت القفل بما تبقّى في رصيدي من صحو، وأوشكت أن أجتاز عتبة **شقّتي** المستأجرة منذ عام تقريبا **بالطابق الرابع**، مثل روح نحيلة تتلعثم في السير، فرط السّكر، وهي تجرّ من خلفها بحبل واهن ثقل جسد بدين.

العتبة، تلك التي لم أجتزها بعد، غالبا ما تردّدت أمامها، ولشدّ ما توخيت قصارى ما يلزم من الحيطة قبل تخطّيها. أليست خطا فاصلا بين **شخصيتين غير متشابهين** على الإطلاق داخل **رجل** واحد، وضفة مجهولة يمكن أن تضمر لي ما قد لا يخطر على البال من الأخطار، وما قد لا يقع في الحسبان من الأهوال؟.

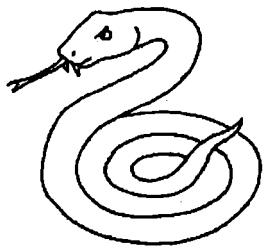

ولعلّ بعض الأخطار جحر عميق، ولعلّ بعض الأهوال حنش طويل يخرج من الجحر، ويبدأ في السعي!.

الباب كان محكم الإغلاق كما تركته قبل انصرافي عند حدود الساعة الثامنة مساء، والدورات الثلاث للرتّاج المسنّن ومتين

fb/mashro3pdf

الصنع لا محيد عنها حتّى ينفتح، وأتمكّن من الدخول.

نعم، هي ثلاث دورات كاملة لمسنّنات الرتّاج المتداخلة مع بعضها بلوالب ودواليب متكاملة الذهاب والإياب، وليس مجرد دورة واحدة أو اثنتين، وإلاّ هدّدت نفسي بالبقاء في الخارج والمبيت في العراء كسقط البشر، في أسوأ الأحوال تحت ظلّة حانوت أو قرب حاوية أزبال، وفي أحسنها على مقعد حديقة عموميّة. وفي جميع الأحوال، يمكن أن لا أفيق بالمرة لأنني سأكون ميتا، وإذا ما أفقت سأكون نصف ميت يكتشف بعد فوات الأوان فقدانه لكلية أو رئة في غمرة نومه العميق.

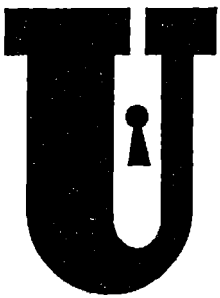

ليس أقل أو أكثر من ثلاث دورات غير منقوصة. إذ إن للأقفال بدورها ذاكرة مرجعيّة تؤرخ لحواس الساكن ولبعض سلوكاته، متى تكرّرت آليا على شكل حركات محسوبة لكل من السّبابة والإبهام، حينما يأخذان بناصية المفتاح.

fb/mashro3pdf

دورة أولى، أعقبتها ثانية، ثم تلتها الثالثة الختامية. وها أنا أصبحت في داخل الشقّة. أخيرا، في الداخل ومن الصدر انفلتت زفرة الصّعداء. فأنا مصاب منذ سنين بعيدة برهاب الخارج. الخارج ذاته الذي كان على الدوام بالنسبة لي تهديدا محتملا لسلامة المرء، خلافا للداخل الذي هو وصول مفترض إلى برّ أمان مرتجى. أمر خطير ومصيري من هذا القبيل ليس هينا على الإطلاق في صلته الوطيدة بالأمن الشخصي، على الأخصّ في مدينة فتاكة وغادرة كهاته التي أعيش فيها، أضحى فيها الخروج بمثابة انطلاق اضطراري لخوض حرب يومية غير متكافئة، وغدت فيها الأوبة بعد فرار النهار من جلده صوب ليل جديد كما لو أنها نجاة مؤقتة.

في تلك الأثناء، رددت الباب خلفي بكعب حذائي مثلما ألفت أن أفعل بحكم العادة لما تتجذّر، وتهجّيت خطوتين في الظلام الضارب أطنابه في الممشى، حتى وإن لطّفت من طغيانه مساحة ضوء خارجي مستطيلة الحجم، كانت تمضي متسلّلة عبر الواجهة الزجاجية لنافذة الصالون.

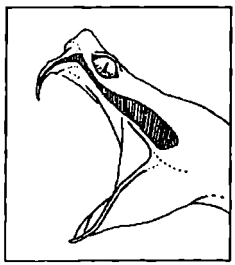

fb/mashro3pdf

الضوء المتسلّل بجسارة وجأش رابط، رديف صريح لانتهاك الحرمة، ومعادل إنذاري لاقتحام متوقع. وأحسب أن الحنش إيّاه هزّ الآن ذيله الرعّاش وشحذ أنيابه السّامة، ثم طفق في البحث عن ضحيته القادمة!.

إنّها الثالثة صباحا كما تشير إلى ذلك ساعة الحائط. ساعة ملائمة تماما لهذا النوع من الحكايات التي ينزلق فيها الرعب تحت ثياب الالتباس، وتتفتّق فيها الظلال من رحم الظلال. الثالثة صباحا على وجه التقريب، إذا ما أخذت بعين الاعتبار نظارتيّ السميكتين من فصيلة درقة السلحفاة، وبأنني ميّزت العقارب بصعوبة بالغة وسط غمامة من التعب والكحول والأجفان المسّهدة، التي تكافح لمقاومة نعاس عدواني يكاد أن يجهز عليّ.

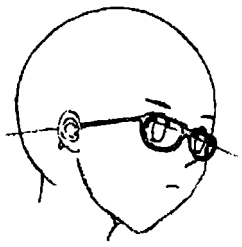

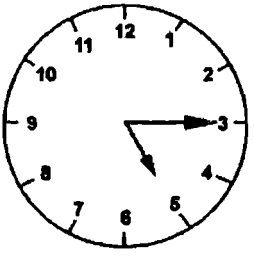

بئس قصر البصر وطول جلسات الخمر، فثمة وقت مهمل وقذر يغوص الكائن في وحله، ولا تشير إليه الساعات.

fb/mashro3pdf

عقب هذا، رميت **بمعطفي الشتوي** على المشجب القريب من المدخل، ثم انحنيت لأضع حاملة المفاتيح على المنضدة الخشبيّة الوطيئة، التي كانت تستند عليها **مظلّتي** التي على ما يبدو أغفلت حملها معي قبل الخروج.

ترى، هل أغفلتها على سبيل السهو، أم تعمّدت ذلك بمحض إرادتي؟ فلا معنى البتة لتقضية سهرة السبت، بمتاهاتها الشائكة وبمصادفاتها الطائشة، وأنت تحرص طوال الوقت، في أي حانة ستغشاها أو حفرة سترتادها، على أن لا تضيع منك مظّلة رخيصة، معوّجة الأسلاك، وعلاوة على هذا متعبة للأعصاب سواء عند فتحها أو إطباقها.

وإبّان تلك الانحناءة، استرعى انتباهي شيء طارئ ملقى على السجّاد وسط الصالون. شيء لم أتبيّنه بالوضوح الكافي، لأنني رمقته خطفا مثل **صورة فوتوغرافية** التقطت بالعين المجرّدة.

fb/mashro3pdf

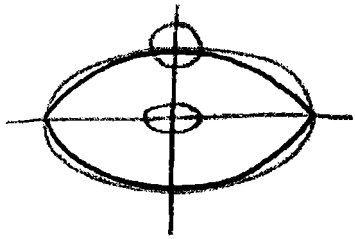

هاهو، إذن، الحنش قد التف على ذيله، وشرع في محاصرتي داخل دائرة مغلقة!.

ولأن الشيء الذي خلته للوهلة الأولى مجرد بطانية غير مطويّة أو حزمة ملابس لم تجمع، كان يتموقع بحوالي متر واحد على مبعدة من انعكاس مساحة الضوء الشتّيت، فقد ظل غارقا في العتمة، ومبهما عن عينيّ المحدّقتين صوبه بلا طائل.

عندئذ، اقتربت أكثر عسى أن أستطلع الأمر، لترتدّ صرخة فزع إلى نحري، وصرت من شدّة الاضطراب المتولّد عن صعقة المفاجأة كمرآة انكمشت على نفسها وهي ترى، ترى بجلاء أمامها جذعا عاريا بطول القامة البشرية يضطجع على بطنه.

إنه هامد لا يتحرّك، ويتخذ وضعية من صدمته سيارة مجنونة على حين غرّة أو من غطّ في النوم بعد نوبة تشنجات مزمنة. إذ كانت إحدى ساقيه ملتوية تحت الأخرى في وضع مقوّس وغير

fb/mashro3pdf

مريح بالمرة. وكنت كلما دنوت، يتداخل ظل جسدي بالظلال المنعكسة للضوء الخارجي الشتّيت، فيتراءى لي الجذع مكتنفا بهالة غير واقعية مثلما لو أنه رسم فحسب على السجّاد.

وعندما جذبت بيديّ الساق المنثنية في محاولة مني لتخليصها من نظيرتها المطبقة عليها، انفصلت عن موضعها بمرونة سائغة، ليتضح لي حينئذ بأنني لست في مواجهة جثّة حقيقية، وإنّما قبالة دمية مانيكان!.

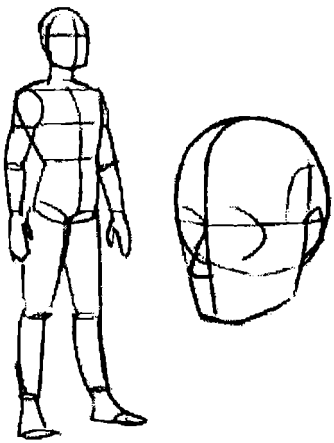

كيف ومتى وصلت إلى هنا، ومن تدّبر أمر ذلك، وبأية طريقة والباب مغلق بإحكام لا شائبة فيه، وما المغزى الكامن من وراء هذا المخطط الجهنمي، وهل هي دمية مانيكان فعلا تضطجع على

fb/mashro3pdf

بطنها عارية فوق السجّاد وسط الصالون، أم هي دمية مانيكان لا وجود لها سوى في رأسي؟.

رأسي الغائمة والضائعة بين عشرات الافتراضات الهشّة، كما لو أنها تتنزّه بمآقيّ الحائرة في أرجاء الصالون، بحثا عن ما هو مثير للريبة أو قابل لقدح بصيص تفسير لهذا الذي يحدث لي.

ياه، كم تخون الشقّق المستأجرة أصحابها العابرين! وكم هو ميت قلب هذا الأثاث السخيف، الذي تحالف بصمته ضدي، مكتفيا بالتواجد المحايد في مكانه، مستقلا بحياته الثابتة، ومنغلقا على ذاته!.

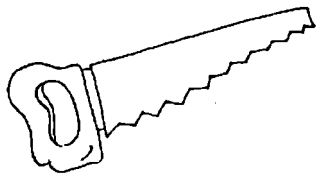

على الأغلب، لقد حانت لحظة قطع جسم الحنش من المنتصف، تفاديا للاختناق داخل الدائرة المغلقة!.

قلبت دمية المانيكان على وجهها، بيد أني لم أعثر لها على وجه. لم يكن ثمة عدا فراغ مقوّر بدقّة متناهية بواسطة آلة حادة على الأرجح. كما أثار انتباهي أن بقية أطرافها ليست من نفس مادة جنسها، مثلما لو أنها كومة تناقضات صمّمت من أعقاب دمى

fb/mashro3pdf

أخرى، أقل منها شأنا وطبقة ومقاما ضمن تراتبيّة عالم الدمى الغامض الخفّي عن مداركنا. لقد كانت من دون شك مسخا وصورة بذيئة التنقّيش من ابتداع عقل مريض، عمد إلى تجويف أحشائها وإلى إحداث شرخ عميق في مؤخرة جمجمتها بغير قليل من الحقد والكراهية، وبنزعة سادية بادية.

أفلت رعب بارد عقاله بدواخلي، وطوّح بي في اتجاه غرفة النوم لأخمد نفسي بعيدا عن هذا الكابوس الغارق في الصّمت المطلق، غير أن الرواق الذي كانت تتواصل فيه خطواتي وتتوقف مثل ضربات قلب لاهث، بدا لي أطول من المعتاد. أليست كل الأروقة طويلة في الأحلام..طويلة جدا كما لو أنّها مديح مقدم أو تحيّة إشادة بالفراغ؟ وهل كنت في تلك الأثناء يقظا أم أحلم دون علمي؟.

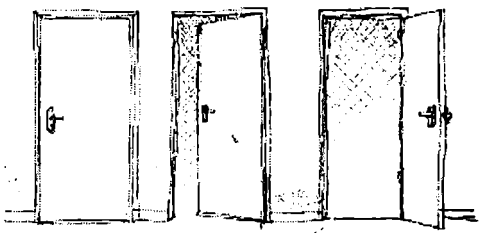

وعلى امتداد الرواق، اصطفت ثلاث غرف موصدة الأبواب. شقّتي كما خبرتها عن ظهر قلب ليس بها سوى غرفة واحدة. من

fb/mashro3pdf

المؤكد، إذن، أنني عالق في شقّة غريبة، بابها الرئيسي أمامي، علما بأن الأبواب عموما تمنحك فرصة وحيدة. فلماذا تراني أتردّد؟ أليس الهرب الطريقة المثاليّة للخلاص من هذه الورطة، ويقينا الطريقة الاحترازية لإرغام الحنش على التراجع إلى ظلمة جحره بعيد القعر؟!.

غير أني آثرت بنفسي أن أغامر بالتسلّل إلى وكر الحنش، ففتحت الغرفة الأولى، التي وضعت على مدخلها لافتة تحمل عنوان "مصحّة الدمى". وفي قلبها الوسيع، تطلّعت مشدوها إلى رفوف انتظمت فيها قوارير وأنابيب ومواد تنظيف وتعقيم، وإلى جوارير وأحواض ومغاطس تتمدّد فيها وسط المحاليل جثامين دمى مانيكان من مختلف الأحجام والأشكال. تطلّعت حتى رأيتني راقدا على جنبي الأيسر فوق سرير أنظر من خلال زجاج نافذة مغلقة إلى وجهي، بالكيفية نفسها التي نرى فيها في القطار وجهين مختلفين لرجل واحد يجلس قدامنا وينعكس على الزجاج، ثم أتخيّلني قد نزعت الشقة من أساساتها، ورفعتها عاليا إلى عنان السماء. وبعد ذلك، جعلت أعلاها سافلها، ثم لما رجّجتها تدحرجت منها دمية المانيكان من ناحية النافذة التي صارت مفتوحة على مصراعيها، واختفى من عليها وجهي.

أعدت بخيالي الشقة إلى مستقرها الأصلي، ثم دلفت إلى الغرفة

fb/mashro3pdf

الثانية، التي وضعت على مدخلها لافتة ثانية تحمل عنوان "مركز إعادة تأهيل الدمى". وفي باطنها المطابق للغرفة الأولى، تجوّلت في مشغل علقت فيه مناشير وكلاليب، ووضعت فيه على طاولات مسامير وبراغي في علب بجانب صفائح شبه مملوءة بالطلاء والصمغ. كما كان ثمة أعضاء وأضلاع دمى مانيكان مثبتة فوق ماكينات صيانة وآلات قطع. وفي أقصى الغرفة، رأيت حقيبة سفر قديمة مغلقة، لكنني لم أعرف لماذا لم أجرؤ على فتحها. إنه بالتأكيد تطيّري الغريزي من الإقدام على فضّ الأسرار المحفوظة والمحكمة السّدّ، التي غالبا ما تودي بمقترفيها. تابعت تجوّالي حتّى رأيتني أحفر بمعول ومجرفة نفقا داخل الشقّة في اتجاه الشقّة المجاورة. أحفر بلا إعياء أو تعب مثل عامل منجم وفوق ظهري ربطت بمشدّ دمية مانيكان. وعندما التمع ضوء في نهاية النفق، وجدتني في مواجهة رجل يشبهني، بيده معول ومجرفة، كان بدوره يحفر نفقا في اتجاهي، وفوق ظهره دمية مانيكان ثانية.

عدت على عقبيّ زاحفا من النفق، وولجت الغرفة الثالثة، التي وضعت على مدخلها لافتة مغايرة تحمل عنوان "متحف الدمى". وفي جوفها المماثل للغرفتين السابقتين كأنما هي لقطة واحدة تم تعدّيلها بالفوتومونتاج، ملّيت العين بألبومات وكاتالوغات وموسوعات مصوّرة بلغات مختلفة عن الدمى، وبواجهات زجاجيّة صقيلة، تجمّعت بداخلها دمى مانيكان مبتورة الأطراف وشائهة

fb/mashro3pdf

الملامح، لكنها بالمقابل كانت ترتدي أزياء قشيبة وفاقعة الألوان وفق آخر تقليعات الموضة.

إنّه لمؤلم على نحو مبرّح أن تكون الزائر الأوحد لمتحف العاهات هذا!.

ملّيت العين حتى رأيتني نائما على جنبي الأيسر فوق سريري، وحينما انقلبت على جنبي الأيمن وفتحت عينيّ، كانت دمية مانيكان منزوعة الوجه تستلقي عارية إلى جواري، ولمحت من تحت جسدها خروج حنش طويل يسعى...

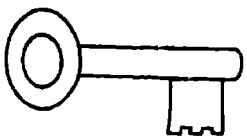

بعد قليل، سأنزل من التاكسي الأحمر الصغير وفي متناول يدي مظلّتي المفتوحة تحسّبا للمطر الوشيك الذي أنذرت به سماء شقّها البرق. سوف أصعد سلالم العمارة كمسرنم بقدمين من حجر، وسأنتصب واقفا أمام الباب. دورة أولى من المفتاح في القفل، ثم ستستعصي الثانية.. وستبتعد خطواتي المتثاقلة في ظلمة الممرّ.. لقد أخطأت مرة أخرى الشقّة وطريقي نحو الطابق الرابع!.

fb/mashro3pdf

(فوتوغرافيا: ماريو أمبروسيوس [سويسرا])

[الصورة 7]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

جناح الشظايا

أولا: تظهير الشفّافة (*)

بالنسبة لرجل غامض مثله، كثير الانتقال من مكان إلى آخر بحكم طبيعة عمله، وشديد التمسّك بسحنة الغريب لكون الإقامة تفسده، كانت الأيام صورة فوتوغرافية بلا إطار.

في حين أضحت المنازل المؤقتة، التي كان يحطّ بها الرحال، حاملا أثاثه الزهيد، وحقيبة سفره، وسيرته المقطوعة من شجرة، كما لو أنها غرف تحميض.

(*) الشفّافة: diapositive

fb/mashro3pdf

ولأن صاحبنا، الذي وقع عليه اختيارنا ليؤديّ دور الشخصية الرئيسية في هذه الحكاية، ينتمي إلى ذلك النوع الذي يثق بما يهدمه ويلامس العثرات فيه، فقد كان بالغ الحرص على أن لا تتوقّف الصورة الفوتوغرافية عن تعديل نفسها، لكن مع احتفاظها في كل مرّة بتفصيل واحد لا يتغير، اسمه: الدمية!.

الدمية ذاتها، التي لم يكتب له يوما أن يمتلكها في طفولته التليدة، غير أنها قبل هذا التاريخ بثلاثين عاما كاملة، سكنت أحلامه الفتيّة، وغدت بمثابة طيفه الصديق، الذي انتصر به على عزلة الابن الوحيد للعائلة.

في الحقيقة، لقد ربّاها طيلة السنين الكثيرة الماضية في ركن دافئ من أعطافه حتّى صارت بصنو عمره. وها هو الآن، على مفرق الكهولة، لم يعد يعلم هل هي نفس الدمية الأصلية التي كان يحتفظ بها بين أشيائه الحميمية الخاصة، دون أن يجرؤ على كشف سرّها لأي كان؟ أم هي دمية أخرى حديثة العهد بالظهور، خرجت خلسة من غفوتها على الضفة المجهولة لوعيه، كي تعوّض دميته القديمة بعدما نهب الزمن رونقها مثل صورة فوتوغرافيّة محروقة؟.

لا عجب إذن، فالذاكرة بطبعها نزّاعة إلى التبديد، ميّالة إلى الابتكار، ولابدّ لها من استحضار قسط قليل من التشابه حتّى يكتمل لديها كل نسيان زائف. ومادامت بيوت شتّى قد أنكرته ولا أهل

fb/mashro3pdf

تحت ثيابه، فلم لا يتّخذ من الدمية أهلا وسكنا بديلين؟.

فغداة كل منزل جديد، ينتقّل إليه متطوّحا من مدينة إلى أخرى، شأن من ولد ليكون فارّا، وليعيش حالة طوارئ دائمة في المكان. وشأن من يعي أن ثمة منازل لا يتملّكها المرء إلاّ ليفقدها فيما بعد. منازل غير قابلة لأن يستعيدها، لأنه لن يعود إليها أبدا بعد أن انتهى فيها كل شيء بمجرد مفارقتها، كما لو أن الحياة الحقيقية تنتظره على الدوام في المنازل القادمة، هناك في الآتي من المدن.

ومن منزل إلى منزل، ومن مدينة إلى مدينة، كان همّه الأوكد وشغله الشاغل، هو العثور على ذلك المكان الآمن والجدير بإقامة السيدة الدمية.

وبما أننا الأقرب إلى صاحبنا من حبل الوريد، سندّعي والعهدة علينا، أن الرجل كان يفتلذ لها من الفضاء حيزا مخصوصا يتوسّط الصالون، ثم يحفّها من الجانبين بالوسائد، كيما تكون في أوج زهوها.

ويا لغبطته بها وهي قبالته، عندما ينخرط في إغراق الليل في كؤوس الويسكي الرخيص، هازم الهواجس وقاهر الوحدانية، مبدّد النفس وقاتل الصحة. يحاورها وتحاوره. ينادمها وتنادمه. يباسطها وتباسطه. يتحاوران يتنادمان يتباسطان إلى أن يصعد برفقتها إلى ذرى وحدته، ثم يتباسطان يتنادمان يتحاوران إلى أن ينزل برفقتها

fb/mashro3pdf

إلى سفوح قنوطه. بمعيتها يخاطب خيال أمه التي ماتت منذ عشرين عاما، ويصمت بمعيتها حينما يثقل السّكر لسانه في حضرة أب غائب وغائم في حناياه، لسبب مجهول لم يفلح بعد في رفع الغطاء عنه.

ثمة جروح لا تلتئم أبدا، ويستحسن أن لا نرفعَ عنها مطلقا فضل الغطاء. تكفيه صحبةُ السيدة الدمية فحسب. فهي صديقة المواجع التي تزدحم في الصدر، ورفيقة اللّحظات الباردة الموحشة التي تصيّر المرء عدوا مثاليا لنفسه.

كما سندّعي من موقعنا كسارد عليم، أن صاحبنا، كان في أحايين أخرى، ينتقي للسيدة الدمية موضعا مناسبا في الرواق المؤدي إلى غرفة النوم، مثبتا في مواجهتها مجموعة من المرايا المتقابلة، التي كانت تستنسخ صورتها.

ترى، هل كان الرجل يعمد إلى هذا لأن ما لا يتكرّر يفنى؟ أم لأنه كان يتصوّر بأن دميته العزيزة تكره أن تبقى بمفردها أثناء غيابه عن المنزل؟ فتعيّن عليه أن يجلب لها ذاتا أخرى من صلبها، وأن يخرج لها من انعكاسات المرايا تلك الروح الحالّة في جسدها علّها تملأ بياضات الغياب، في انتظار عودته الوشيكة.

آنذاك وبمجرد وصوله إلى المنزل، أي منزل، في أي مكان، أو في أية مدينة، كان يسدل ثوبا أسود اللّون على المرايا، على

fb/mashro3pdf

كل المرايا، ويستعيد لوحده الدمية، لوحده فقط، ثم يواصل اختلاءه بها.

فإذا كان النهر لا يستريح بغير تلاشيه في البحر، فهو على غراره كان لا يستريح بغير تماهيه في الدمية، مثلما لو كان عاجزا على أن يحيا بدون طاقة يضخّها من هذا الظل المتّخفي بداخله. أيكون مصابا بوحدة مصّاص الدماء الذي يحتاج لدماء الآخرين كي يستمر على قيد البقاء؟ وهل يعلم بأنه كان في واقع الأمر يمصّ كل يوم كميات عظيمة من الدماء من شرايينه هو، لا من أنساغ ذاك الجماد الفارغ؟!.

وبسبب كل هذا، فلهُ الآن أن يصغيّ لذلك الصوت المزدوج المدوّي بلا توقف داخل جوفه: "أنتَ هو الدمية.. أنا هوَ الدمية". صوت صارخ كما لو كان مستقلا عنه، بنبرته الخاصة وحياته الموازية.

ثانيا: تنقيح الشفّافة

على هذه الوتيرة، ظلت تمضي علاقة صاحبنا بالسيدة الدمية، التي صنعها في طفولته الآفلة، وأدمنها في شبابه المتواري، ولم يسأمها في ما تبقّى. لا يعكّر صفوهما تعدّد المنازل، ولا يغتال سكينتهما تناسخ الصالونات والأروقة أو المرايا.

fb/mashro3pdf

إلى أن جاء يوم، قرّ فيه عزم الرجل على وضع حدّ نهائي لنمط حياته التي أنهكها السفر وأثخنتها المسافة. فتخلّى عقب هذا القرار الحاسم عن عمله، ثم نجح أخيرا بمدخراته في امتلاك **شقّة** جديدة **تقعُ بالطابق الخامس لعمارة.**

أليس السفر بدوره جرحا تذكيه المسافة؟ وإذا ما تردّى إلى مهنة مضنية، ألا يفقد معناه بفقدان معنى المسافة، فيتوقف عندئذ عن النزف؟!.

فبعد اليوم لن يتجشّم وعثاء السفر، أي سفر لا يسفرُ عن متعة. وبعد اليوم لن يتقيد بأية مهنة، بأية مهنة ثابتة. ولتكن من الآن فصاعدا مهنته الكسل. كسل بلا استيقاظ مبكر، بلا قلق ناهش، بلا نزوع مرضي للترقّي الاجتماعي، وبلا إرهاق وظيفي كان يجعل نظرة عينيه تبدو للآخرين غبّ كل نهار مثل نظرة طيور اللّيل العاجزة عن الرؤية في الصباح.

وبمجرد الاستقرار في الشقّة، حدث لصاحبنا ما هو مذهل ومخالف للتوقعات التي كنتُ قد وضعتها مسبقا للحبكة. أزعمُ بأن الرجل شرع يحسّ بأنه يتغيّر في أعماقه، وبأن كل شيء طفق يسير بالنسبة إليه في الاتجاه الصائب للمعنى.

بل، قد يتمادى بي الزعم إلى القول، بأن نفسهُ كانت تبدو له، في تلك الأثناء إذا ما رغب في وصفها، كما لو أنها **شخص بعيد** يراه

fb/mashro3pdf

من النافذة، من نافذة لا مرئيّة مشرعة بداخله، يراه من الخلف، يبتعد مرتديا **معطفا شتويّا** مرفوع القبّة في يوم قائظ، يبتعد ويبتعد حتّى يستحيل إلى نقطة بيضاء نحيلة أو حبّة حصّى سوف تغيب بعد برهة وجيزة عن مجال الرؤية.

ألّمت بصاحبنا حالة توازن تام، فتوقّف عن السّكر، وأصبحت عاطفته خاوية وغير أمّارة بالسيدة الدمية. فتلك التي كانت ملء العقل والخاطر نفدت دفعة واحدة من الجسد والوجدان، لدرجة أنه أقدم على وضعها في **شرفة** الشقّة بين ركام المتلاشيات. تلك المتلاشيات التي لم تعد تنتمي إلى حياتك، وحتّى إن أنت لمحتها بمحض المصادفة، غدت مجرد غرض ضائع أساء توقيت العثور عليه.

وضعها الرجل بلا أسف أو كسرة ذنب في الزاوية اليمنى للشرفة.

هناك تماما، قرب **المظلّة** الصغيرة، المغلقة، الواقية من المطر.

تماما هناك، حيث بقيتُ بلا حراك، ليستبدلني المؤلف في التوّ بسارد عليم آخر، لا علم لي بشيء من نواياه.

fb/mashro3pdf

ثانيا: تخريب الشفّافة

في الأسبوع الأول لحلولكَ بالشقّة، الجديدة طبعا. كنتَ تضعُ رأسك على المخدّة، وتغمض عينيك، وخلال ثانية واحدة، تنزل إلى دهاليز النوم مثل رضيع أنهى بزّازة الحليب.

لكنّ إرادتنا الشريرة، على عكس السارد السابق الذي كان يبدي تعاطفه المتواطئ مع حالتك، اقتضت أن لا يستمر الحال على ما هو عليه. إذ لا مناص من خلط واختلاق كل شيء، الواقع والوقائع. ولا فكاك من جعلكَ تركض كالفأر داخل مربع رعب متساوي الأضلاع.

فحال مغادرتك لشقّتك في اتجاه نزهات طويلة لا حساب للوقت فيها، كنتُ أدفعكَ إلى الالتفات فجأة بمجرد اجتيازك البوابة الرئيسيّة للعمارة. ومن موقعك عند انحناءة الطريق، كنت أعمد لأن يخيّل لك بأنك ترى الدمية واقفة على الشرفة أوان كل صباح، ترفع بيديها المظلّة الصغيرة الواقية المفتوحة، تنظر إليك مضيومة بوجه ممتقع وبعينين يغشاهما الأسى.

وكنت أطيلُ تحديقتها وأحوّلها إلى وجع مستغيث يتركّز في محجريها مثل من ستودّع محبوبا للمرة الأخيرة عبر النافذة الخلفيّة لحافلة سفر منطلقة، وسوف يستحيل المحبوب بعد حين إلى وجه

fb/mashro3pdf

بعيد وضبابي وتجريديّ القسمات في الذاكرة كخطاطة أوّلية لرسم بقلم الرّصاص.

كنت أطيلُ تحديقتها، حتّى يرتجّ كيانك، وحتى يعصف الخوفُ بيقينك.

أما إذا جنّ اللّيل واستسلمت مكرها إلى رقادك الثقيل على سريرك، فكنت أتوغّلُ إلى أدغال كوابيسك وأفتعلُ أن تنتفض وجلا من عمق سباتك، لأن المشهد المتكرّر الذي كنت تظّنُ أنه يجري من وراء جفنيك، سيتضح لكَ لاحقا أنه ربما يكون حقيقيّا فعلا وباعثا على الفزع: لقد كنت أحفّز الدمية على مغادرة موضعها على الشرفة، لتستمتع بتجوّلها العابث في أرجاء الشقّة. تشعل مصباح الرواق، وتقف لدقائق طويلة أمام باب غرفة نومك الموصدة، كي تختفي بعد ذلك ظلال قدميها تدريجيّا من تحت حافة الباب، ثمّ حالا ينطفئ النور.

كنت أشجّعك على مغالبة فزعك، لتهرع من سريرك في إثرها، غير أنك كنت تفاجأ في كل مرّة بوجودها متكوّمة وسط المتلاشيات، في الزاوية اليسرى للشرفة، تماما على مقربة من المظلّة الصغيرة، الواقية، المغلقة.

بل، الأدهى من ذلك، لما سوّلتُ لك بأن تطاردها في إحدى اللّيالي ولم تستطع ضبطها في حالة تلبّس، وقفت على الشرفة

fb/mashro3pdf

لتدخّن سيجارة، فاستشعرت ما حسبته يدا ضئيلة تجذب تلابيب سروال بيجامتك. وعندما انحنيتَ لتستطلع الأمر، صوّرتُ لك بأنّ الدمية أضحت بسيقان كثيرة، وبأن خيوطا دقيقة لا حصر لها تتدلّى من كل زوايا الشرفة.

وفي نوبة جيشان وهوس أشعلتها بما تبقّى من أعصابك المتلفة، كنتَ كلما كسرتَ للدمية ساقا، إلاّ وخرجت من فجوة الكسر ساق أخرى. وكلما ظهرت من متّسع الفجوة ساق أخرى، تهدّلت منها المزيد من الخيوط، وسرحت في كل الاتجاهات ملتفة على بعضها كأنها نسيج جهنميّ يوشك أن يشدّ على رقبتك بحبائله.

عنكبوت ضخم ومشعّر صار يجثم على صدركَ، وخاصم النوم عينيك. وكي لا تتفاقم الأمور وتنقطع كل أوتار الكمان كما يقال، اتّقيت فيك وجه الله، فأوقفتُ عبثي حتّى لا تتجاوز خطوط المربع الحدّ المرسوم لها.

من فضلك صدّقني، لستُ أنا من سلّط عليك وابل الخبطات. لستُ مسؤولا عن الخبطات. تلك التي كانت تندلع خفيفة على جدران الشقّة تحت جنح الظلام. لست مسؤولا عن الخبطات لمّا ارتفعت وتيرتها كأنّما هي مطرقة هائلة تخلخل أضراس الأساسات. لست مسؤولا عن تهشّم الأواني والثريات وزجاج النوافذ. لست مسؤولا عن تطاير الشظايا، عن تطاير كّل الشظايا، عن كل شظايا الشقّة

fb/mashro3pdf

المتطايرة وشظايا حياتك المتطايرة كلّها. لست مسؤولا عن الهزّة العظيمة ناحية المطبخ كما لو أن زلزالا صغيرا ضرب الشقّة على حين غرّة.

تأكّد جيدا أن

لا

يد

لي

في

أي شيء

مما حدث أو سيحدث

رجاء صدّقني، فلستُ مسؤولا قطعا عن أي شيء. صدّقني، فأنا مثلك مصدوم وغير مصدّق. مثلك أقف على حافة الهاوية المطلّة على الشارع. أقف بصحبتك وأتطلّع معكَ بحزن وفؤاد يتفطّر إلى الشرفة التي انهارت من عليائها، وقررت مغادرة الشقّة دون استشارتنا.

أقفُ إلى جانبكَ ولسان حالي يهذي، أرأيت كيف انتحرت الشرفة كمدا على ما أصاب السيدة الدمية التي بدا منظرها مؤلما، وهي

fb/mashro3pdf

مضرّجة في دمائها وسط الأنقاض والحطام؟!.

صدّقني

لا يد

لأحد

منا

في شيء مما حدث

fb/mashro3pdf

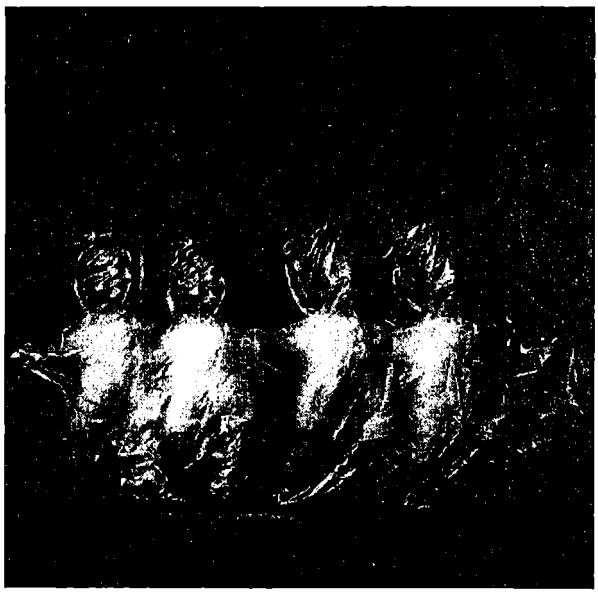

(فوتوغرافيا: آرثر تريس [و. م. الأمريكية])

[الصورة 8]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

جناح الفصام

هو سرّ رهيب وصادم، سوف تذيعه لأول مرة في حياتك، بعد أن تعبت من إخفائه في أعماقك لسنين طويلة، بل إنك لم تجرؤ على إفشائه ولو لذلك **الرجل** الحيّ، الذي تمثّل **نسخة منه** دون استئذانه، ودون مكاشفته أنك شبح يعاشر دمية!.

الرجل هذا، المولع بهواية **التصوير الفوتوغرافي**، والذي غدوت بمرور الوقت شبحا رسميا له لاعتبارات معقدّة يطول شرحها، هذا الموظف المحترم في إدارة عمومية، والذي لا يدري أنكّ كل يوم تنفدُ من جسده كما ينفذ الشهاب الساقط من بين عيون المدارات، وتبقى كما يحلو لك في **شقّته بالطابق السادس للعمارة**، أو تراقبه

fb/mashro3pdf

من **الشرفة**، عندما يرتدي **معطفه الشتوي**، وينصرف إلى العمل.

هذا الرجل ذاته، الذي أَنتَ شبحهُ، كان يعيش وحيدا شأن أي عازب عتيد دون زوجة تؤنس برودة سريره، وحيدا مثل جيب فارغ أو طريق جانبية مظلمة، وحيدا لأنه كان ضحية حب قديم فاشل، فانكسر قلبه وسقطت شظاياه في حفرة، وفي نفس الحفرة هاهي أيامه ترتطم على الدوام بجرح مفتوح هو صورته، وهاهو الآن صار يحتفظ خلسة في غرفة نومه بدمية، يختلي بها بعيدا عن الأنظار ويسجنها في حلكة خزانة خشبية على بوابتها قفل صارم.

حسنا، سنفترض أَنكَ لست على بيّنة بأسباب إقدامه على أمر مشين وغير سّوي كهذا، لكنك تعرف من خلال خبرتك كشبح عركته التجارب القاسية، صال وجال بين سكين العواطف وتفاحة الجسد، أننا قادرون على تمويه الوحش المقيم تحت جلودنا إذا ما داهمتنا ندبة في الفؤاد، وبمستطاعنا إذا تعثّرت الرغبات أمام صخرة الصدود، أن ننكّل في خفاء بمن نكنّ لهم عشقا منحرفا.

في الحقيقة، وكي تنفرج قليلا عروة السرّ الرهيب والصادم الذي كنت تكتمه، تلك الشقّة، وتينك الغرفة والخزانة، هي أشياء حملتها معك من عالم ذلك الرجل، الذي أنت شبحهُ، إلى عالم مواز طبق الأصل للواقع.

لنقل بأنك تماما مثل كاميرا رقمية متطوّرة، سجّلت ملايين

fb/mashro3pdf

الساعات والذكريات المباشرة من معيش ذلك الرجل، الذي أنتَ شبحهُ، ثم بثّت الصور في مكان افتراضي يشبه إلى أبعد حدود التناظر شقّة، بها غرفة نوم، وداخلها خزانة خشبية على بوابتها قفل صارم.

هذا البثّ كان وابلا من صور تنثال بلا انقطاع مثل مياه تسقط من حالق، وهو بمثابة رواية ثانية، معدّلة، من المستقبل القريب جدا، لكلّ الوقائع التي سبق أن عاشها الرجل، الذي أنتَ شبحهُ، وأضحت منتهية منذ زمن وشيك جدا في الماضي.

لكن، الصور في اعتقادك ظلت ناقصة ومبتورة مادامت تلك الدمية رهن الأسر، رهن الذكرى، رهن الذكرى الهاربة من شخص ميت بداخله وهو حيّ. ففي كل خزانة نحكم إغلاقها كما يجب، ثمة يأس صامت، ثمة أشياء يوجعها النسيان، وثمة دمية داخل الجثّة، تبتغي الفرار بأي ثمن ولا يمكنها الخروج.

أليس من اللائق أن نسهو بين الفينة والأخرى، وأن نترك الخزانة مبسمّة قليلا أو مشرعة إذا أمكن، حتى نطلق سراح الأشياء التي ما عادت تطيقنا؟.

قلت هذا لنفسك، ولفضولك الذي مزّق كافة تحفظاتك إربا فإربا، ثم عالجت القفل، وأقدمت على فتح الخزانة، ويا ليتك ما فعلت!.

لقد كانت دمية الرجل، الذي أنت شبحه، معيبة مخيّبة للتوقعات.

fb/mashro3pdf

محض أمل كاذب يتخّفى في زيّ تهيؤات وأهواء دفينة. إذ سرعان ما تبيّنت لك ذمامتها الدامغة بمجرد امتداد كفّك لتحريرها من الظلام الذي يطوّقها بذراعيه القويتين.

فجسد الدّمية يابس ناشف كنبات شوكي، وإحدى ساقيها محطّمة. وجهها بشع له هيئة جرذ، يعلوه شحوب الموت، وتتوسّطه عينان ضيقتان قمينتان. ملابسها في غاية الرثاثة والإهتراء، وأنوثتها حسيرة توّلاها الذبول بمشيئته.

إذن، ما من صيد ذي بال في حوصلة الطائر! غير أنك لما كنت بصدد التطلّع إليها بتجهم وحسرة بالغين، ها أنت لم تعد أنت على الإطلاق، وها أنت تقع مثل الفجاءة في غرامها.

شيء غريب نال حصته منك وأطلق يديه فيك، شيء غامض وغير قابل للوصف شتّت مشاعرك وجعل مرأى الدمية ينقلب إلى سحر متسلّط، إلى جياد غفيرة ركضت في مفازة قلبك، وإلى جلطة عاطفية أصابتك في مقتل.

يقينا، إنها روح الدمية التي اخترمتك، اجتاحتك، واستولت على كيانك بالكامل. وكما هو غير خاف، عندما تنتزعُ كيان شخص ما، فورا تأتيك الأطراف جميعها، تباعا وطواعية.

عندئذ، من المحتمل أنك استوعبت ما الذي كان يحدث للرجل، الذي أنتَ شبحهُ، فعندما أدمت النّظر كالمأخوذ إلى عقيقتي محجريها،

fb/mashro3pdf

ماتت الأشياء الأخرى كلها من حولك ورقدت رقدتها الأخيرة، ماتت الجدران، والأرضية، والسرير، والشراشف، والبطانية، والمزهرية، **والحقيبة**، واللوحات، والطاولة، والسجاد، والستائر، والنافذة، والمرآة، والمشجب، **والمظلّة**، والباب، ومات المزلاج.

توقف بثّ الصور، ومات عالمكَ الموازي، بل مات حتى الشبحُ بداخلك، وحدها الدمية كانت حيّة في الغرفة، ومن المحال بعد الآن أن تفصلكَ أي جراحة عن هواها.

أما ما حدث لك بعد ذلك، أنتَ الشبحُ السابقُ للرجل الذي كنتهُ، فأمر يفوق الخيال بالتأكيد. فما إن أصبحت مربوطا في الدمية واحتلّت عادة فتح الخزانة كل خليّة من عقلك، حتّى صرت خادما ذليلا وطّيعا لجسدها الذي طفق يطالبك بالغضارة والرواء. صرت بعيدا عن كل شيء، خارج مدار الوقت، وداخل ساعة بلا عقارب، حيث لا يشيخ شيء، ولا كل شيء آنّي.

ألم نكن على الدوام القربان المثالي لأحبتنا؟ والخلود؟! ألا يحتمل أن يكون على شاكلةَ هذه الصيغة المنتشية التي تجعلك مقذوفا خارج التقويم ومجمّدا في الأبدية، أو في قلب لحظة تبرّأ منها الزمن وجعلها معزولة عن بقية اللحظات الأخرى البائسة والخالية من المتعة؟!.

فالساق المحطّمة كان عليك أن تصلحها. الملابس اقتنيت منها

fb/mashro3pdf

صنوفا وألوانا وأعدادا لا يمكن أن تخطر سوى على بال زير دمى محترف. ضمّخت العطور الفاخرة، دلّكت البشرة في كلّ يوم بمختلف أصناف المراهم والماكياج، صفّفت الشعر بتسريحات جديدة، وأظهرت حنّة يديك في صبغ الأظافر وتزجيج الحواجبِ.

وماذا أيضا؟ ألم تزنّر جيد الدمية بالقلائد؟! ألم تغدق على أصابعها ومعصميها أرقى الخواتم وأثمن الأساور؟! ألم تجلب الملابس الداخلية الأكثر فحشا؟!.

أي معتوه أنت! فلقد طحنك شغف الدمية طحن رحى من حجر، وصوّرت لك أحاسيسك الكتيمة التي حفرت منجما جوفيّا عميقا بداخلك، أن دميتك المدلّلة غدت فتاة فاتنة من لحم ودم، أو إحدى أجمل النجمات اللائي تتهافت عليهن أغلفة المجلات المصوّرة.

فتذكّرت حينها آلة التصوير الفوتوغرافي الخاصة بالرجل، الذي أنتَ الشبحُ السابقُ لهُ، فضبطت مصوّب العدسة وأشعلت الومّاضات. حدّدت المجال ودقّقت مصافي الإضاءة، متخيّلا نفسك في مطعم ذي إنارة خافتة حيث يأكل العشاق بعضهم بنهم فائق، ثم أخذت في اقتناص دميتك الغالية التي انتصب جسدها نضرا بنهدين عارمين على نمط "بوتشيللي" وسط عالم يجلّله السكون.

السكون ذاته، الذي سرعان ما كان يتفتّت كلما أجّجت حمّى الموسيقى من المسجّل، وانتقلت بخيالك إلى نادي تعرّ فارغ من

fb/mashro3pdf

الزبناء، حيث كانت جسد الدمية يتلوّى، يتأوّه، يتمدد، يتشقلب، على الصدر، على الظهر، على البطن، على الزند، باتجاهك يحبو، باتجاهك يرقص، يرقص لكَ لوحدكَ فوق حلبة دوّارة.

الحلبة دوّارة دوّارة، والجسد فوّار فوّار يدغدغ الحواس ويشعل فتيل الشهوة.

اقتنصتها من شتى الأنحاء ومن كل الزوايا بسرعة وبعمق ذي خلفيات متغيّرة الألوان متبدّلة التضادات. نقراتك كانت تنهمر عليها كاللسعات كاللدغات تهمي كالملاعبة كالمداعبة، فيهتزّ يقين الجماد. اقتنصتها على هدي ارتفاعات ومنحنيات إيقاع الموسيقى كما لو أنك تطلع وتهبط فوق سقالة متحركة، تنحدر تارة حتّى تلامس الأرض، وأنت تنقر، ثم تسمو تارة أخرى حتّى تتيه في الضّباب، حتّى تجاوز المدى، حتّى تسقط من علياء عائدا إلى حضيض الأرض، وأنت تنقر، والموسيقى تزداد جشعا وبربريّة كلما اشتدّ أوار النقر.

تنقر على الشعر، فيميد. تنقر على الشفاه، فتفتر. تنقر على الصدر، فيغتر. تنقر على الأرداف، فتهديك إلى فضيلة ما تكاد لا تراه لكثرته. تنقر، فيكبر حجم الدمية في خاطرك وأوهامك، طويلا، ممشوقا كأنه صبّ في قالب مسكوك دفعة واحدة.

تنقر، فتتعرى. تنقر، فيناديك العري نداء السيد لكلبه. تنقر، فتنادي

fb/mashro3pdf

العري نداء الكلب لسيده. تنقر وتنقر بلا كلل أو ملل، فتحلّق (يا ولدي) طيور وتشتعل مواقد. تنقر، فتدق (يا ولدي) فؤوس وتقرع طبول. تنقر، فتتفتّق (يا ولدي) ينابيع وتتفجّر براكين. تنقر، فتتناهش (يا ولدي) ذئاب وأسود وضباع وفيلة وتماسيح وقردة وزرافات وفهود وثعابين وسحالي، فتتفرج الغابة عن بكرة أبيها، وأذرف أنا عليك (يا ولدي، يا ولدي) الأسف!.

تواصل بفعل احتدام الإثارة التي لا تقاوم، نقر زرّ آلة التصوير حتّى تمسي المادة المصّنعة لحما طريّا غير مصادق عليه. تنقر، فيصبح لهذا اللّحم ملمس، وللملمس رائحة لا تخطئها غريزتك. تفتح اللّحم وتدخل، ثم تفتح اللّحم وتخرج. تدخل إلى اللّحم وتخرج منه، وتخرج من اللّحم وتدخل إليه، إلى أن يختلط عليك اللّحم، وتختلط عليك غبطة الدخول بمحنة الخروج.

تبّا لرتابة المتعة، ولشقاء تكرارها!.

اللّحم، كل هذا اللّحم، لم يعد يكفيه لا ليل ولانهار، لم يعد يكفيك لا في الصباح ولا في المساء. اللّحم، كل هذا اللّحم، لا ينصرف ولا يستريح ولا يتقهقر إلى الوراء. اللحم، كل هذا اللّحم، تذهب فيه بعيدا ولاتصل. تصل فلا تعرف كيف تعود. اللّحم، كل هذا اللّحم، هل كان مجازا؟ أم أثرا متروكا في ماء؟. اللّحم، كلّ هذا اللّحم، ما عدت تشعر به، وما عاد يشعر بك، وكم هو صعب أن لا تشعر

fb/mashro3pdf

به، وكم هو صعب أن لا يشعر بك وأنت تراه ويراك، وتتوغّل فيه ويتوغّل فيك.

اللّحم، كل هذا اللّحم، كانت مرارته راعفة في فمك وأنت تهجم كالمجنون محمرّا من الغضب على حلبة الرقص الدوّارة لتنخرط في افتراس الدمية عضوا فعضوا، افترستَ فروة الرأس مخلوطة بالشعر، افترستَ المخ، افترست الوجنتين، افترست الضلوع والكتف، افترست الثديين، افترست الرسغ والزند والعصعص، افترست الأحشاء والمصارين، افترست القلب والكبد، افترست أصابع القدمين بأمشاطها وسلامياتها، افترست الأظافر، وافترست الفاصل بين الوهم والوهم.

كشطت اللّحم، كل هذا اللّحم شريحة فشريحة لدرجة لم يتبق بين أسنانك وأنيابك المهشّمة سوى العظام. عظام اللّحم، عظام كل هذا اللّحم، الذي صار طعمه في فمك مقيتا جدا، وأنت تنزل من حلبة الرقص الدوّارة منهكا ومغسولا بالعرق، كي تربض بنفسك داخل ظلمة الخزانة الخشبيّة، وتطلب مني أن أضع على بوابتها ذلك القفل الصارم الذي كنت تعبث به كلما غبت عن شقّتي..

أبتهل إليك، لا تطلب مني بعد اليوم أن أفتح لك!.

(عافاكْ، ما عمرك تگول ليا نحلْ عليكْ أمسخوطْ الوالدين)!(*).

(*) بالدارجة المغربية.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

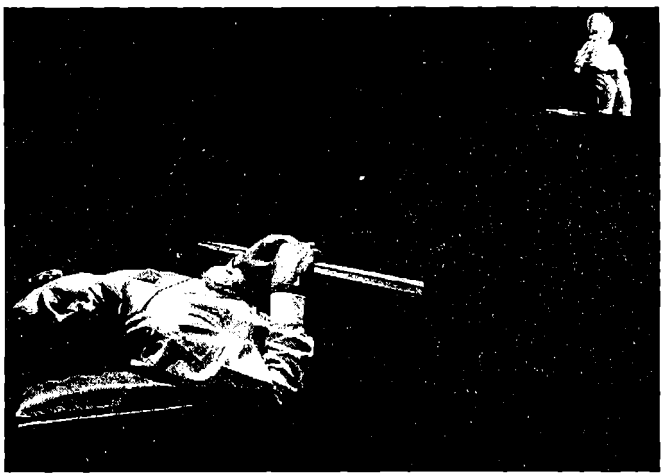

(فوتوغرافيا: مانويل ألفاريس برافو [المكسيك])

[الصورة 9]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

جناح العدم

(إلى صديقي رشيد المومني)

1 - رجل الأنشوطة:

حينما انتابتني عادة ارتياد متاجر العاديات خلال الأيام القليلة الماضية، لم أكن أنشد على الإطلاق شراء آلة بيانو، ولم تكن هذه الرغبة تدور بتاتا في خلدي.

في الحقيقة، لقد كنت أبحث عن شيء آخر مختلف تماما، أبحث تحديدا عن سجّل وسرير.

fb/mashro3pdf

أقصد، عن سجّل إداري من نوع مخصوص ونادر، وكذا عن سرير خشبي إضافي ومشابه – إذا أمكن – لذلك الذي أتوفّر عليه داخل غرفة نومي.

بالطبع، قد يلوح هذا السعي غريبا إلى حدّ ما، بل متناقضا إلى درجة النشاز، من حيث الجوهر والذوق، مع فكرة أنيقة وشاعرية مثل فكرة اقتناء آلة بيانو.

لكن، ماذا عساني أن أفعل وأنا لا أملك من ناصية أمري شيئا؟ إذ إني – بكل صراحة – **رجل** مسحوب من روحه بأنشوطة هواية غير رائجة قلّما تستسيغها العقول السليمة، ومسلوب في جسده بالحضور المحايث لشخص دخيل تغلغل بين ثنايا حياتي وقلبها رأسا على عقب.

2 - سجّل المتغيبين:

في ما يخصّ هوايتي غير الرائجة، فلقد أجزيت الأسابيع العشرة المنصرمة منشغلا بها، شغوفا بالإثارة المتولّدة عنها، وعاكفا بجدية بالغة على إنجاز سجّل شخصي للمتغيبين على نحو قسري وفي غير الأوان المكتوب لهم، جرّاء حوادث السير، أو حالات الانتحار، أو جرائم القتل بمختلف صنوفها.

fb/mashro3pdf

فكنت أزور المقابر، وأقسام المستعجلات، ومستودعات حفظ الجثث بشكل يومي مواظب، ثم أجمع وأسجّل أسماء الضحايا، وأسباب هلاكهم أولا بأول قبل أن تبرد دماؤهم كما يقال، وأقصى طموحي أن يتردّد بين صفحات السّجل اسم أحد الراحلين لمرتين أو ثلاث، كيما أثبت صحة فرضيتي التي مؤداها بأن بعض الأشخاص بإمكانهم أن يقضوا نحبهم عدة مرات في حياة واحدة!.

وبما أن بعض الهوايات، التي يعتنقها غريبو الأطوار من طينتي لدوافع ميتافيزيقيّة غامضة، أو لطرد أفكار سوداء منبعها التطيّر، مقدّر لها أن تصير بمثابة نشاط روحي قادر على إشفاء المرء من هاجس وجودي مفترس ولا علاج له كالموت، وجدتني أتحوّل بمرور الوقت إلى ما يشبه مؤرّخا للسأم، يقوم بإعداد ببليوغرافيا مصغّرة، أو أنطولوجيا وجيزة للفوات المجحف.

بل أكثر من هذا، وبغاية توسيع دائرة تقصّياتي واغناء لائحتي من المشمولين بقسوة أخطاء الصدفة، ومهاوي النفس، ومهالك القدر، كما هو خليق بأي باحث متحرّ لا تثنيه المصاعب عن التوغل في أراض مجهولة، طفقت في الفترة الأخيرة على السياحة في متاجر العاديات، القريبة أو البعيدة عن سكنايّ، منقّبا هنا وهناك وسط الغبار والنسيان والأرضة، عن بارقة سجّل عتيق، قد ينتمي إلى الوثائق الرسمية لمؤسسات من قبيل مخافر الشرطة، أو مستشفيات

fb/mashro3pdf

الأمراض العقلية، أو دور العجزة، لكنها اضطرّت للتخلّي عنه من بين قوائم أرشيفاتها، إما بسبب اجتياح المياه والرطوبة، أو بإيعاز من إغلاق أبوابها أو تغيير عناوينها.

3 - البدن المزدوج:

أما في ما يتعلّق بالوجود المحايث للشخص الدخيل، وحاجتي المستعجلة إلى سرير إضافي، فتلك واقعة أغرب من الخيال، وسوف تتطّلب مني بالتأكيد بعض الشرح:

أنا في واقع الحال لست واحدا، وإنّما اثنان! صورة تخرج من صورة، أو بالأحرى **قامة تنهدم وقامة تقوم**. مجرد ضيف ثقيل على بدني المزدوج.

ففي غضون الشهرين السابقين، عندما أدلف إلى غرفة نومي، كنت ألتقي بنفسي. أريد أن أقول: كنت أجد جسدا ثانيا لي يستلقي في محلي حيث أضطجع.

جسد لا هو بالميت ولا هو بالحيّ، بل هو غير مسكون بكل بساطة.

وفي ما بعد، سأكتشف بأن كل ليلة هي ممر سرّيّ للتناسخ في ما بيننا. فجوة تنفتح في جدار الزمن وتخوّل إمكانية حدوث هذا

fb/mashro3pdf

الإرباك المنافي لقوانين الطبيعة. وبالتالي، تعذّر عليّ معرفة في أي الجسدين سيتعيّن أن أستيقظ عند حلول غرّة النهار التالي.

ربّاه، من لي بحلّ ناجع كي أتنصّل من وزر هذا الشطر العاطل مني!.

فلو أقدمت على تخريبه، ترى إلى أين ستأوي روحي لحظة مغادرتها لجسدي الأول؟! وإذا ما سافرت خارج المدينة، وسهوت عن حمله معي ضمن أمتعتي، ألا أجازف بأن أعثر عليّ في ذات المكان الذي انطلقت منه؟!.

وهكذا، وحتّى لا تكون حالتي رزيّة شأن كل من ذاقت عظامه برودة الأرضية العاريّة لأمسية كاملة، أو كيلا ألفي كسدتي في موضع غير لائق إذا ما كان جسدي الثاني نائيا عني غداة تبديل روحي لمطيتها، ارتأيت أن أعمل على جعل الجسدين متقاربين، وأن يرقدا جنبا إلى جنب في غرفة نوم واحدة.

نعم، جنبا إلى جنب في غرفة نوم واحدة على الأقل! لأنني أفترض توفّر إمكانية أن أموت مرتين (وحبّذا لو كان ذلك بفارق زمني محترم!) عوضا عن واحدة مادمت أمتلك جسدين، وليس بمستطاعهما أن يرقدا معا في قبر واحد!.

ومن هنا، حافزي المتكرّر للذهاب إلى متاجر العاديات، القريبة أو البعيدة، من أجل تصيّد سرير إضافي مطروح للبيع.

fb/mashro3pdf

4 - المتحف المهجور:

وفي واحدة من جولاتي الأثيرة هاته، دخلت إلى متجر غير معروف بالنسبة لي، ولم يسبق أن قادتني الخطى إلى المنطقة الكائن بها.

كان عبارة عن مرآب هائل الاتساع، يعجّ بما لا يحصى من الخردوات، والكراكيب، وأسقاط الأثاث، المكدّسة فوق بعضها بلا أدنى ترتيب أو تنسيق، كما تغطس غالبية محتوياته، المحشورة كيفما اتّفق في رفوف وخزانات مغبّرة، في ظلمة وجمود معفّرين، أعطياني انطباعا مثبطا للعزيمة بأنني أتحرّك بين أفياء متحف مهجور يعمره رجع متحف سابق، أو بأنني أتقدم متلمّسا طريقي وسط ضباب أعور وسرابي، مثلما لو نفذت إلى واقع وهمي من نسج خيالي، وتسرّبت بكيفية ما إلى واقع موازٍ للواقع الفعلي، حيث شتّى ما يحيط بي ليس حقيقيا البتّة، وحيث للمنطق أبعاد أخرى ونواميس مختلفة.

لكن، سرعان ما وضعت العقل بصرامة في مواجهة شطط الإيحاء هذا لئلا تجرفني الرؤى، ومضيت ماسحا كافة الأرجاء بنظرات متفحّصة، آملا أن أقع أخيرا على بغيتي.

لا أثر على مدّ العين المجرّدة لبصيص سجّل أو سرير، وعلى الرغم من تمحيصي الدقيق وحرصي الشديد على عدم إغفال أدنى

fb/mashro3pdf

زاوية في المتجر، كنت كمن يذّري الرمل بحثا عن الرمل.

5 - بيانو على الشاطئ:

وفي اللحظة، التي أوشكت فيها على الانصراف ساحبا وراني ذيول الخيبة، جلب انتباهي في الفناء الخلفي للمتجر وجود مطلع شيء مّا كان يبرق كأنه نصل حاد يجرح العتمة ويداويها. وعندما دنوت مستثارا بجاذبية الفضول لتبيّن كنهه عن كثب، لمحت آلة بيانو يضيئها من أعلى السقف نور متوهّج.

مكثت لبضعة دقائق مثل صرخة علقت في الهواء، واقفا قدامها غير قادر على اجترّار ذهولي، لأن نور المصباح كان يرمي بوميضه العنيف على آلة البيانو، غير أن هيكل الآلة كان يلفظ هذا النور السخيف والزائد عن اللّزوم، ويصدر بدلا عنه لمعانا طفيفا خاصا به، كما لو أنه ليس هيكل آلة بيانو حقيقيّة، وإنّما **شكل صورة فوتوغرافية** لهيكل آلة بيانو تمتد بنوع من الخداع البصري عبر أشعة الضوء.

لا أفهم لم رجّتني في تلك الأثناء هزّة عاطفية لاذعة أمام هذا المشهد المبهر، وكنت تارة وأنا أمشي في اتجاه البيانو كمن يمشي على طول شاطئ مقفر فوق حصى دقيق وناتئ يوجع حدّ البكاء

fb/mashro3pdf

أقدامي الحافيّة. لا أكثرت بالوجع ولا بالدماء النازفة، وأواصل المشي، بيد أن الشاطئ لانهاية له والبيانو يزداد في كل خطوة بعدا عني.

أما في طور آخر، فنسخة أولى من جسدي كانت هناك مسمّرة أمام البيانو ولا تراني، وبالتزامن معها كانت ثمة نسخة ثانية من جسدي تغذّ السير على الشاطئ في اتجاه ذات البيانو وأنا أرى اللّقطتين معا على شاشة باطنية مزروعة برأسي.

فأدركت عندئذ بأن البيانو الصامت هو ذكرى بائدة لبيانو يعزف. أدركت بأنني كنت أمشي القهقرى مسلساً قياد الذاكرة صوب رغبة غافية خلتها اضمحلّت بأعماقي قبل هذا الميقات بسنوات طويلة. صوب حنين استيقظ في الحشا من خموله ليحثّني مجددا على معاودة تماريني على هذا الصندوق السحري، الذي انقطعت أصابعي عن نقر ألحانه منذ مرحلة دراستي الأكاديميّة بالمعهد الموسيقي.

نسيت بالمرة شأن السجّل والسرير، وبدأت أخمّن مليّا في ابتياع البيانو. وقبل أن أحسم قراري على نحو لا رجعة فيه، سمعت صوتا واهنا بنبراته صرير غريب كأنه صدى أجوف، يهتف باسمي.

تعقّبت مصدر الصوت مفعما بالدهشة، لألقاني في مواجهة صاحب المتجر، الذي هو شيخ مسنّ مضغ كمية غير هينة من الأعوام والعزلة. كان يرتدي وزرة باهتة مخطوفة الزرقة، ويقتعد

fb/mashro3pdf

كرسيا ضخما لا يتناسب مع ضآلة بنيته الجسدية الذّاوية، والمختلجة بارتعاشات رهيبة.

لم يفاصلني كثيرا في سومة البيانو، واقتنع سريعا بما أدليت به من عيوب وجيهة بصدد لوحة المفاتيح والدواسات وأجهزة الأداء والأوتار الفولاذيّة. لكنه قبل أن أهمّ بالمغادرة، دسّى يده الراجفة خلف الكرسي، ثم أهداني دمية!.

كانت دمية مزبلة مهترئة. محض حثالة متهدلة البطن واليدين على نحو منفّر، وفروتها قرعاء كما لو أن بكثيريا خبيثة قرضت جلدة رأسها. عيناها مقتلعتان، والبطاريات من ظهرها منتزعة.

لعلّ المسكين لا يعلم بأنني مقطوع النسل لا عقب لي مثل بغل، وحسب بأن لي أولادا سيفرحهم مرآها!.

تسلّمتها منه على مضض، وأنا أتأمل نظرة الميت التي تتربّع في محجريه (والتي تؤهله بلا ريب للدخول إلى سجّلي دونما عناء يذكر!)، والتقاطيع البئيسة لسحنة الدمية التي لا أدري ماذا سأفعل بها؟!.

6 - الدمية العازفة:

أشرفت على عملية إصعاد البيانو، بما تتطلّبه من كياسة وانتباه،

fb/mashro3pdf

إلى **شقّتي بالطابق السابع للعمارة**، متعمّدا بنية مبيّتة أن أخلّف الدّمية المأفونة في سيارة الشحن بغرض التخلّص منها، غير أن أحد الحمّالين – جازاه الله – تفضّل بجلبها إليّ.

وقبل أن أنال قسطا مستحقا من الراحة، عمدت إلى إعادة تنضيد طنافس الصالون كي تخلو لي مساحة مناسبة لوضع البيانو في الركن الأيمن المقابل **للشرفة**، كما جعلت الدمية تغرب عن ناظري بإخفائها داخل **حقيبة** سفر كبيرة الحجم، ثم طمرتهما سويّا في جوف خزانة الثياب.

أيضا، أخرجت كراسا للنوتات احتفظت به من أيام المعهد الموسيقي، ووددت أن أداعب المفاتيح بواحدة من مقطوعات "رحمانينوف"، التي أحدس أنها مازالت عالقة بذاكرة أناملي، لكن الحالة التقنيّة السيئة التي كان عليها البيانو، أملت إرجاء هذه الأمنية إلى حين إصلاح الأعطاب وتسوية الأوتار.

في تلك الليلة، وبخلاف ما درجت عليه، لم أدوّن من فرط الإرهاق أي اسم في السّجل، وتمددت كمضروب بالعصي على فراشي، مستعدا بكل تعبي للشروع في الانزلاق رويدا فرويدا إلى بلاد النعاس السعيدة.

ومن عمق منطقة التذبذب بين الإغفاءة والاستفاقة، انسكب فجأة في مسمعي قطرٌ نغم مستقطع كان يعلو ويخبو. فساورتني لحظتئذ

fb/mashro3pdf

شكوك بكوني أحلم فحسب، بيد أن استقواء نبر النغم واختراقاته المتواصلة لدفاعات سكينتي، عجلّ بنهوضي لكسر لغز هذا الصوت وإيقاف تصبّبه بأيّ ثمن.

هل نهضت فعلا؟ أم لم أبارح بعد سريري؟ ربّما، مازلت أتقلّب بين الأغطية، وذاك على الأرجح جسدي الثاني من أيقظه قطرٌ نغم، فسبقني إلى النهوض لكسر لغز الصوت وإيقاف تصبّبه بأي ثمن.

كنت (أنا أو ذاك) الذي دأب على تقليد هيئتي، من سار مجيلا الظنون على امتداد الرواق. (أنا أو ذاك) من تيّقن بأنني لم أغفل إغلاق الراديو أو التلفاز. (أنا أو ذاك) من كتم أنفاسه وأسقط في يده من الرعب، حينما تخطّى الصالون وحفر المسافة والسّواد الوافر بنظره إلى الركن الأيمن المقابل للشرفة. (أنا أو ذاك) من بقيّ بلا حراك يرنو إلى الدمية مائلة على البيانو وهي تعزف موسيقى بارعة وبديعة كأنها رعشات في الرخام (للأسف، فلا يمكن وصف الموسيقى الرائعة بكلمات.. بمجرد كلمات!).

أيعقل هذا! فالدمية كليلة، والمفاتيح مرتخية. لكن متى احتاج العازف إلى عينين أو أداة؟! العازف يكفيه أن يسافر داخل روحه، ولما يصل إلى مكان قصّي، ينبري وقتئذ إلى العرف بالأصابع المضفورة على قلبه!.

كنت (أنا أو ذاك) من قال هذا في خاطره.

fb/mashro3pdf

7 - الطيور المتوحشة:

دفعت عني استغراقي في الموسيقى الذي فاق الحدّ، وشخصت كرّة ثانية في اتجاه البيانو، لكنّ الدمية اللّعينة احتجبت عني، وتوارت عن بصري في موضع لم أستطع تحديده.

وكلما استأنفت البحث عنها، سمعت من حولي أصوات ارتطام جسم مّا بالأثاث والأبواب.

ألا يقع مثل هذا حتّى لأفضل العميان!.

كذلك، مكانها في حقيبة السفر أضحى بقدرة قادر شاغرا. والعزف بالمقابل استمر في الانبعاث بلا توقف من البيانو طيلة اللّيالي المواليّة، التي لم يضمّ لي فيها رمش.

تلك الموسيقى التي كانت آسرة، صارت ضجيجا، أزيزا، صخبا، كتلة من غضب، طيورا متوحشة، موسيقى توغر صدر الموسيقى وتؤلبها على الموسيقى، نهرا هائجا من أتربة وحجارة ورواسب وسيول موحلة، فيضانا من موسيقى أغرقتني في الكآبة واليأس. وتدريجيّا، انتبهت إلى أنني تحت تأثير وقعها بت أشيخ وأنحدر نحو العجز. بل الأفدح من هذا، كلما راجعت السّجل، وجدت اسمي، اسمي فقط مقيّدا فوق كل الصفحات، في حين امّحت بقية الأسماء الأخرى!.

fb/mashro3pdf

كنت (أنا أو ذاك) من أضرم النار في كل من البيانو والشقّة في تلك الليلة الممطرة التي اشتدّت فيها شّكيمة الريح. (أنا) من تدّثر **بالمعطف الشتوي** وحمل **المظلّة**. و(ذاك) من أنزلني سلالم العمارة وأنزل حقيبة السفر وبها متاع حياتي الهزيل. و(جسد ثالث) تخلّق للتوّ، من احتضن السّجل أمام صدره، وقاد ظلالنا نحو الصمت النهائيّ!.

[بناء على مرسوم شخصي صادر عن المؤلف، بشأن جدوى الاستمرار في الحكي، وتطبيقا لمقتضيات صارمة تهمّ طرق تدبير الكتاب القصصي، تمّ إغلاق أبواب "مصحّة الدمى" بتاريخ: الجمعة 10 أكتوبر – الموافق 15 ذو الحجة 1435 /2014]

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

سجّل الصور الفوتوغرافية

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

سنفترض بأن هذا السجّل، الذي يذيّل الكتاب، هو بمثابة جولة على الأقدام داخل متحف متخيّل أو غاليري وهمي. إذ لو توفرت مقومات التكنولوجيا الرقمية، لأمكن إنتاج واقع افتراضي يقوم بمحاكاة وقائع كل حكاية من حكايات الفوتوغرام بالموازاة مع الصورة الفوتوغرافية المرافقة لها. وداخل ردهات كل جناح من أجنحة المصحّة وهو يستعين بنظارات العرض الالكترونية، سوف تتاح للقارئ الكريم تجربة المعايشة والرؤية المجسّمة ذات العمق بأبعاد ثلاثية. وستوفر هذه المعايشة والرؤية القدرة على الأخذ والرد عن طريق النظر في وقت آني، بالإضافة إلى القدرة على سماع الأصوات وأحيانا القدرة على اللمس، أو الاندماج والمشاركة عن طريق التفاعل متعدد الصيغ.

بل، قد يذهب الطموح الإبداعي إلى أبعد من هذا، لتحقيق فكرة طالما راودتني في كتب قصصية سابقة، لكنها على ما يبدو غير قابلة للتطبيق، إما لغرابتها أو لانعدام الوسائل التقنية الكفيلة بانجازها، وهي أن تقرأ حكايات الفوتوغرام والصور الفوتوغرافية من لدن القارئ المحترم داخل مرآة. بمعنى أن توضع الصور الفوتوغرافية مقابل طباعة كاليغرافية مقلوبة، على أساس أن يكون الغلاف الرابع للكتاب مزودا بجيب يحتوي على مرآة صغيرة. وعلى هذا النحو، سوف يتمّ التلقي عن طريق عكس الكلمات والحروف على صفحة المرآة لتتحقق القراءة الصحيحة.

أكثر من هذا، إليكم فكرة أخرى تبزّ سابقتها في الغرابة، حتى وإن كانت تكافئها في لا قابلية التفعيل: أن ندس في الجيب ذاته من الغلاف الرابع ساعة أوتوماتيكية غير مرئية ذات مؤشرات زمنية موافقة ليوم كامل، وبعقرب أفقي جامد. ساعة غير معطلة كما قد يتراءى للوهلة الأولى على نحو مخادع، بيد أنها تسجل فحسب بشكل غير محسوس الوقت المتبقّي عوض الوقت الذي مرّ من النظر والقراءة. وكلما توقف القارئ عن مشاهدة الصور الفوتوغرافية أو قراءة حكايات الفوتوغرام وهو يتجول بين أجنحة المصحة، يشرع عقربها في الدوران معلنا عن ساعة وفاة المؤلف، وبعدها تلقائيا ستختفي الحروف وسوف تمّحي الصور. عندئذ، يوم واحد فقط سيفصل كاتب هذي السطور عن النهاية.

من فضلكم، لا تجعلوا ساعة موتي تحلّ سريعا!.

fb/mashro3pdf

- **الصورة 1/** الغلاف الأول: **ليو جيا** (1961-...) شاعرة ومصورة فوتوغرافية وناشطة سياسية. زوجة المناضل الديمقراطي الصيني "ليو جيا أوبو" (جائزة نوبل للسلام، 2010). منعت أعمالها الفنية من العرض إلى حدود سنة 2014. تقيم في العاصمة بكين تحت الإقامة الإجبارية.

- **الصورة 2/** النسيجة: **هانز بلمير** (1902 - 1975) رسّام ومصور فوتوغرافي وحفّار ومصمّم ونحات. يعد من الفنانين البارزين ضمن التيار السوريالي. من أشهر معارضه: "الدمية" (1934)، و"لعبة الدمية" (1949).

- **الصورة 3/** جناح الغصّص: **ليو جيا** (أنظر الغلاف الأول).

- **الصورة 4/** جناح الأورام: **لويز بورجوا** (1911 - 2010) نحاتة وتشكيلية ومصورة فوتوغرافية. قضت معظم حياتها في أمريكا بعد زواجها من المؤرخ الفني "روبير غولد وتر". تتناول أعمالها موضوعات كونية ذات صلة وثيقة بالحب، والجسد، والعزلة، والعلاقات الشائكة بين الكائنات. من أهم معارضها: "النسوة المنازل" (1950)، و"العنكبوت" (1970).

- **الصورة 5/** جناح الهلاوس: **إيكو هوشوي** (1933-...). مصور فوتوغرافي ومخرج سينمائي ومدير متحف. اشتهر باهتمامه بعالم المومسات في طوكيو وبتشخيصه الخيالي والأسطوري لمخلّفات القنبلة النووية على هيروشيما. كما استلهم في صوره العالم الروائي لـ "يوكو ميشيما". يعتبر الجسد الموضوعة الرئيسية في معارضه، باعتباره ترجمانا للذات والهوية.

- **الصورة 6/** جناح العاهات: **كاتي هورنا** (1912-2000) مناضلة ومصورة فوتوغرافية ولدت ببودابست، وقضت حياتها متنقلة عبر المنافي. تنتمي إلى التيار السوريالي، لكنها آمنت بدور الفوتوغرافيا في التغيير الاجتماعي وبوظيفة الصورة الساخرة في نقد الوضع السياسي وإدانة العنف. من أهم معارضها: "ألبوم الحرب الأهلية الاسبانية" (1937)، و"فراديس اصطناعية" (1962).

fb/mashro3pdf

- **الصورة 7 / جناح الشظايا: ماريو أمبروسيوس** (1959-...). يتحدّر في مدينة بادن. درس بجامعة برلين للفنون الجميلة. يعمل ويقيم في اليابان منذ سنة 1980. عرف باشتغاله الفوتوغرافي على الدمى اليابانية.
- **الصورة 8 / جناح الفصام: آرثر تريس** (1940-...) مخرج سينمائي ومصور فوتوغرافي يقيم في بروكلين. يعد رائدا للصورة "مابين الواقعية" المعاصرة. اشتغل على كوابيس الطفولة وعلى اللاوعي الكامن في الأخيلة. من أهم معارضه: "مسرح الذهن" (1976)، و"السفر العجائبي" (2001).
- **الصورة 9 / جناح العدم: ماتويل ألفاريس برافو** (1902 - 2002) مصور فوتوغرافي. أعماله تختزل الثقافة والهوية المكسيكيتين، بنظرة تتجاوز التسجيلية الوثائقية، مركّزة على الخيال الذي يلّف الحياة المدنية والتقاليد والمناظر الطبيعية. انشغل أيضا بتصوير نجوم السينما ومشاهير الفنانين التشكيليين في بلاده. ارتبط في فترة بالحركة السوريالة بعد أن افتتن "أندري بريتون" بالمعرض الذي قدمه في باريس برفقة "هنري كارتي بريسون" سنة 1932.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

في رأيي هناك نوعان من الكُتّاب: كاتب صيّاد، وكاتب بحّار.

الصيّاد، كاتب يبقى قريبًا من الشاطئ، لا يغامر في العمق، يصطاد بالطريقة نفسها في كل مرة، ولا يحصل إلّا على أشياء متوقعة، مكرّرة، حصل عليها قبله آلافُ الصيادين، هو صيّاد/ كاتب لن يحصل على لؤلؤة، ولن يرى جنيّة البحر/ الكتابة أبدًا.

أما الكاتب البحّار، فهو مغامر، يذهب بعيدًا في البحر، عيناه مُعلقتان بالأفق، قلبه شغوف بالتجربة، الاكتشاف، والمتعة، وجهه مُتلهف للارتطام بأسرار العالم، مشغول دومًا باكتشاف جزيرة جديدة، والحصول على لؤلؤة لا شبيه لها، أشياؤه صافية، أصيلة، وجديدة تمامًا، هو بحّار/ كاتب يصل حيث لن يصل غيره، يحصل على لؤلؤته، ويرى جنيّة البحر/ الكتابة.

وأنيس الرافعي، القاص المغربي المجدّد، الشغوف بالمغامرة الجسورة والتجريب الخلّاق، كاتب/ بحّار، حصل على لؤلؤته، ورأى جنيّة البحر/ الكتابة، عندما تقرأه للمرة الأولى تحبه، للأبد تحبه.

محمد القحراني (قاص وروائي مصري)

9 789774 903052

دار العين للنشر
Elain Publishing House

غلاف: صابرين مهران

fb/mashro3pdf